رمانة فارس والهيئة

معاناة وتجربة ذاتية مع رجال الهيئة



شادية عسكر

رمانة فارس .. والهيئة

الكاتبة / شادية عسكر

ولدت قبل خمسة وأربعين عاما في الرياض نتيجة زواج والدي السعودي المتحدر من اصل وافد اسود من والدتي المصرية التي كانت تعمل لحظة تعرف والدي بها ممرضة لدى أحد أطباء الباطنة المصريين الذين حصدوا شهرة واسعة في الرياض القديمة .

أتيت إلى الدنيا حاملة على كتفي وزر اللون المائل إلى السواد وراثة من أبي ، ولم تفارقني الحسرة لحظة سواءٍ في طفولتي أو مراهقتي وحتى بعد أن أصبحت فتاة راشدة ، لم تفارقني هذه الحسرة وأنا أنظر في بشرة أمي البيضاء المشرئبة بحمرة وأسأل نفسي أو أسال الله : لماذا لم أرث لونها الفاتح ..؟

لماذا زادت الوراثة اللعينة قبحي بهذا الأنف الافريقي المنفرش ..؟؟

طبعا تلك أسئلة من النوع الذي لايجد لها المرء إجابة لكنه لايكف عن طرحها أو التفكير فيها.والدي موظف الصادر والوارد كان يتمتع بثروة متوسطة لابأس بها ورثها من والدته التي كانت تعمل مرافقة لسيدة مقعدة غنية من أهل القصيم .

وعلاقته بأمي كانت غامضة محيرة فهو يضربها نهارا بقسوة طالما أبكتني وجعلتني أختبئ في دولاب الملابس خوفا لكنه مايلبث ليلا أن يعاشرها بحب ودلال كنت أفهم مغزاه بشكل عائم كلما سمعت الهمهمة والضحكات المتقطعة. نشأت في هذا الجو بدون اشقاء بسبب مرض عرفت فيما بعد أنه ألم بأبي وسبب له عقما دائما حسب رأي الأطباء.كنت طفلة وحيدة فتركزت كل عواطف والدتي في شخصي فكانت تحيطني بحبها ورعايتها خاصة وقد أجبرها والدي على ترك عملها بالعيادة بعد سنة من زواجهما فتفرغت كليا لي ولشئون المنزل .

كان والدي يشرب في بعض الليالي منفردا أو بصحبة أمي التي كانت (تتذوق) فقط مجاراة له أو كما فهمت حتى تضمن سهره في المنزل وعدم خروجه. أما في المرات التي يحضر فيها بعض أصحابه إلى البيت لمشاطرته السهر والشرب فكثيرا ماكانت السهرة تنتهي بعلقة من الضرب الساخن تأكلها أمي التي تعترض على هذا الطقس، لكن سرعان ما تنتهي الليلة طبعا بصلح في السرير متبوع بالهمهمة والتأوهات ..

بدوري (تذوقت) للمرة الأولى وعمري ثلاثة عشر عاما. سرعان ماطاب لي الشرب خاصة وأمي كانت تغض الطرف أو تكتفي بتأنيب بسيط ، أما أبي فلم يكن له علم ولا ادري كيف كان موقفه لو عرف: السخط أم الرضا .

من ظن بأن اللون الأسود لايتحول في مدينة كالرياض إلى وصمة خزي أو كارثة فهو إما منافق أو جاهل. لقد عانيت الأمرين بسبب لوني خاصة في طفولتي الأولى .

بدأ شعور بإختلافي اللوني يتعاظم ويزيد في إنجراحي منذ دخلت المدرسة. كن البنات الصغيرات يتحاشين صداقتي كليا وبعضهن ينادينني بالعبدة أو السودا .

لطالما عدت للبيت حزينة باكية شاكية لوالدتي ما ألقيه في المدرسة من معاناة. حتى المعلمات الفلسطينيات والمصريات كنت أظن بأنهن يوبخنني بسبب لوني أكثر مما هو بسبب تقصيري في دروسي.كان حلم حياتي في تلك الأيام هو الهجرة إلى مكة أو جدة، فمنذ ذهبت مع أمي معتمرة في سن العاشرة أندهشت من فسيفسائية تلك المدينتين بحيث تحولك أحداهما إلى مجرد نقطة صغيرة في بحر هادر من البشر.والأن أتذكر كم كانت البراءة المعجونة بالألم تجعلني أفعل أشياء ساذجة صبيانية. فقد أمضي الليل أدهن شعري بالحناء أو بزيت الطبخ على امل أن اصحو صباحا بشعر تحول من الأجعد إلى الأملس بقدرة قادر .

وأحيانا ادهن وجهي بدقيق أبيض معجون بعصير الليمون والملح عساني أكتسب لونا أفتح بدرجة أو بدرجتين .

لكن الجرح الكبير الذي أنفتح على ألم شاسع إنحفر في نفسي كأخدود كان ينتظرني خارج أسوار المدرسة. فحين تعرفت وأنا في السادسة عشرة على أول شاب في حياتي عن طريق الهاتف كان قلقي لايحتمل وأنا أفكر كيف سأخبره بحقيقة لوني .

قلت له ذات يوم وقد استجمعت شجاعتي بأني سمراء فرد بعبارة لا انساها ماحييت :

ما أحب إلا السمر .. !!

حين دلفت سيارته لاحظت عينيه اللتين تكادان تخترقات جلد كفي . إتجه بالسيارة إلى شارع فرعي وطلب مني أن أكشف غطاء وجهي .

فعلت بعد ممانعة طويلة لأرى الصدمة التي عقدت لسانه وقد تغير لون وجهه، ربما عرف في تلك الدقيقة بأن وصف سمراء لاينطبق علي بأي حال .. مع ذلك حاول أن يبتلع صدمته ويظفر بشيء، بأي شيء ، فأقترب مني محاولا أن يقبلني ، فنفرت خجلة بعفوية كاملة ، فما كان منه إلا أن ألحق بي إهانة لاتوصف. لقد بصق علي وهو يقول: هذا وإنتي عبدة ..!!

بسبب مافعله ذلك الشاب معي إزداد كرهي لنفسي ونقمتي على وراثتي المشؤومة. لم أعد اطيق مجرد المرور من آمام المرآة .

والاحباط جعلني أقبل على التهام الطعام في كل وقت فازداد وزني ليزيد بشاعتي بشاعة .. لكن دماء المراهقة الساخنة كانت تتفجر في عروقي ، ونيران التوق إلى الجنس الأخر تسري في عصبي شأني شأن أي مراهقة في العالم ..

وكلما هممت بأن أبحث عن رقم هاتف لأجرب حظي تذكرت بصقة ذلك الشاب فتدمع عيني وأتناسى الأمر. لكن بمرور الأيام كنت قد وقعت في هوى صامت إذ تعلقت بشاب أبيض وسيم من جيران جدد، فكنت أراقبه في دخوله وخروجه وهو لايدري عني شيئا .

إزداد ولعي حتى أحتلت صنوف الحيل لاحصل على هاتف منزلهم ، وإلا فأمي لم يكن لها أي صلة بأي جيران .

تحدثت مع منصور - وهذا هو أسمه - مرتين وأثنتين وعشرا ومائة حتى صار أحدنا لايطيق الغياب عن الآخر .

لم تكن علاقة عادلة لأنني كنت أعرفه .. أعرف أسمه وشكله وعمله ومقر سكناه أما هو فلايعرف عني سوى معلومات كاذبة ..

أولها أنني بيضاء بعينين عسليتين وقد ممشوق .. لقد حاول منصور جاهدا ان يرأني وتوسل بكل غال أن أمنحه ولو فرصة أن أطل عليه من سطح أو باب ولكن بلاجدوى فأنا أكثر من يعرف خاتمة فعل كهذا .

بالمقابل أردت ان أحتفظ به لأنني أحببته بكل صدق فأعتمدت على السلاح الوحيد الذي أملكه وهو .. صوتي المخملي الدافئ .

لقد عيشت منصور في حلم وأطعمته الحلم وهدهدته بالحلم في مملكة صوتي الساحر الذي هو هدية الرب الوحيدة لكثير من سود البشرة.وعلى ذلك تطور الكلام بيننا تدريجيا من الغزل البريء إلى الكلام الجنسي المكشوف الذي كنت أنجرف له في البداية رغبة في أرضائه وتعويضا عن حرماني له من رؤيتي ثم أصبحت مع الوقت أستلذه وأستطيبه واشعر بأنني معه في آمان من الرفض أو الاحتقار .

وذات يوم حين أصر منصور بأنه يجب أن يرآني وأنه لم يعد يطق صبرا، حاولت أن أماطله أكثر بأن وعدته بصورة سيدسها الصبي الذي يشتغل في خدمتنا من تحت بابهم في منتصف الليل .

أيضا هذه كانت كذبة أخرى فلم يكن لنا صبي ولاهم يحزنون . أمر الصورة كنت قد حسمته مبكرا فمن ألبوم الصور الذي تحتفظ به والدتي الاسكندرانية لأهلها أخذت صورة أبنة خالي فتحية .

شابة في مثل سني .. بيضاء حلوة الملامح ، بعينين عسليتين وشعر كستنائي لكنها كانت تميل إلى السمنة ..

وأنا أخبرته بانني ممشوقة القوام . هذه بطبيعة الحال لم تكن مشكلة فيمكن التعذر لو سألني بزيادة وزن طارئة . خرجت بعد ساعتين من صلاة العشاء وقد خلد الأولاد إلى بيوتهم وهدأت السكة من أي ضجيج أو حركة ..

دسست الصورة على عجل من تحت بابهم ملفوفة في ورقة ثم سرعان ماهاتفته لأطلب منه أن يمر بالباب لأن الصبي عاد إلى بيتنا ، وبعد أكثر من أتصال كنت أقطعه لأن والدته أو إحدى أخواته ترد ، حصل المراد . بقيت لعشر دقائق بعد المهاتفة أنتفض من رأسي إلى أخمص قدمي وأتصبب عرقا وقلبي لايتوقف عن النبض المتسارع وأنا أفكر في شعورة وردة فعله وهو يرى صورة فتحية .

بعد نحو نصف ساعة دق التلفون ثلاث رنات أنقطعت ليعقبها بعد دقيقتين الاتصال كما هي الشيفرة التي توافقنا عليها .

تناولت السماعة وقلت .. آآآآلو ..

بغنجي الذي يعرفه فلم أسمع منه سوى صوت فرقعة قبلات محمومة ومتعاقبة بدون أية همسة. كانت الصورة قد راقت له جدا وأستولت الفتاة التي فيها على شغاف قلبه .

كم تمنيت في تلك اللحظة لو أدفع من مستقبل أيامي أو أخسر شطرا من سنوات عمري فقط لو أن الله منحني نعمة أنني أنا فتحية ولست رمانة.أدخلت الصورة المزيد من الحميمية على علاقتنا ..

ياللأكاذيب كم تصنع من مشاعر .. !!

صار منصور وهو يحدثني يتغزل بصفاء بشرتي وبعيني وبشعري وبأبتسامتي التي يحسب أنه يعرفها حق المعرفة من تلك الصورة .

في البداية كان ذلك يسعدني لكن ما أقسى التجارب التي نخوضها في هذه الحياة. فتدريجيا بدأت أشعر بالغيرة من فتحية ..

وفي ساعات آخرى كان يخالجني شعور غريب بالانفصام في شخصيتي .. من أنا ..؟؟ من أكون .. ؟؟

ومن الفتاة التي يعشقها منصور حد التبتل والعبادة .. ؟؟ هل هي رمانة أو فتحية .. ؟

إن كان يعشق القلب والمشاعر فتلك هي رمانة بالتأكيد ، أما إن كان يعشق الشكل والصورة فتلك هي فتحية ، أما إن كان يعشق المشاعر والصورة معا فهما يشكلان فتاة مختلطة مهجنة لا اعرفها البتة .

كانت المفارقات في علاقتي بمنصور لاتنتهتي .. فمن الأشياء التي كانت تحز في نفسي إلى حد موجع هو في تلك المرات القليلة التي كنت أخرج فيها مع أبي لنستقل سيارته فنصادف منصور واقفا امام بابهم أو خارجا من البيت . لم يكن يعر والدي حينها أية التفاتة ولو عابرة ولم يكن يختلس أية نظرة للفتاة المتلفعة بالسواد معه وكأننا لاشيء .

من الواضح أنه مثل الباقين يداخله هذا الشعور الممزوج بالنفور والإحتقار والكراهية نحو سود البشرة . ربما كلهم كرهوا جيرتنا في أعماقهم دون أن يفصحوا .

منصور كان (خضيريا) لكن بشرته الفاتحة تبين أن العنصرية لها مراتب ودرجات ، فمن يمارس الناس ضده تمييزا سيمارس بدوره التمييز ضد من يظنه أو يرأه أدنى منه .. !!

وبعد سنتين من علاقتي الافتراضية بمنصور ، وهي أفتراضية إذ أنها لم تخرج عن إطار أسلاك الهاتف ، حدثت الصاعقة الكبرى التي دمرت قلبي .. وخلقت مني شخصا آخر يملئه الحقد والغضب المكتوم .
سمعني أبي ذات ليلة وأنا أتحدث مع منصور ولسوء حظي فقد سمع طرفا من حديثنا المحموم في مشاعرنا الجسدية . جن جنونه وهو يدخل الغرفة علي ويضربني بعنف وقسوة شادا شعري ومتلفظا علي بأقذع الشتائم وأشنعها ، ومعرضا بجنسية أمي .. !!

جرني من شعري إليها وهي التي أستيقظت لتوها على الصراخ ، طرحني على سريرها ثم أمرها بطريقة فظة وقبيحة وبكلمات ساقطة .. أن تتأكد من عذريتي ..

يالله يا الممرضة المحترمة أكشفي عليها .. ؟!

ذبحني أبي ذبحا بهذه الكلمات حتى أحتبس البكاء في صدري مثل الغصة .

لم يتركني في حالي بعد تلك الليلة ، لقد ضيق علي تضييقا كبيرا حتى خارت قواي وأخبرته بمايريد .
أنطلق مثل الشرارة إلى بيت منصور وفي يده عصا طويلة أنهال بها عليه ضربا .

عرف منصور أخيرا من تكون فتاته . ليست أكثر من سوداء قبيحة ووالدها أشد منها سوادا وقبحا .

مؤكد أن الحقيقة أوجعت روحه أكثر بكثير من وجع الجسد الذي ألحقه به أبي .. لم أتحدث بعدها مع منصور قط .. وهو لم يحاول أن يتصل بي أبدا. لم يحاول ان يعاتبني أو يسألني أو يستفسر مني

عن شيء .

أنتهت قصتنا منذ ذلك اليوم لكنها ظلت جرحا مفتوحا في أعماقي للأبد . وربما كانت من بين الجراح الغائرة العديدة التي قادت خطاي فيما بعد إلى تشكل شخصيتي المتزمتة الحاقدة على الناس ، وعلى الفرح، وعلى الحياة .

أنكفأت على نفسي بعد واقعة منصور وأصبحت أقضي معظم اليوم في غرفتي أدفن نفسي بين كتب المدرسة أو في كتابة مشاعري الحزينة. لكن تسجيلي في معهد اعداد المعلمات (الثانوي) إبتداء من السنة التالية شكل فرصة لي للخروج من دائرة الوحدة والألم .

كان المعهد مجتمعا أكثر تنوعا وانفتاحا من مجتمع المدرسة الصغير والمحدود. وفيه لم أصبح متفردة وحيدة بلوني المحروق ، فأشعرني ذلك بنوع من الطمأنينة.لم تكن الصحوة قد بدأت تأخذ بتلابيب المجتمع ، فكان المعهد يموج بالبنات اللواتي لايتوقفن عن التباهي بقصص المواعدة والعلاقات العاطفية وتبادل أشرطة الأغاني والمجلات الفنية .

أيضا شكل المعهد فرصة لي لأسمع بأفكار لم أكن أعرفها من قبل .. فتلك الطالبة الحجازية صوفية .

وتلك الطالبة الشمالية ابوها مسجون لأفكاره الشيوعية .. وهكذا .. !!

سنوات المعهد كانت خصبة نسبيا وحظيت فيها ببعض الصداقات فبرئت بعض جراحي القديمة. وأهم ماحدث لي في المعهد على الاطلاق كان تعرفي بطالبة سمراء اسمها (فوز) كانت تحاول جاهدة بمساعدة البعض اثبات نسبها لرجل من الأسرة كان قد تسرى بوالدتها ، لكن المصاعب والعوائق كانت أكبر من أحلامها .

فوز يصح وصفها بالسمراء بدون أي تردد ، وقد كانت طويلة مليحة ، وتحرص كثيرا على حسن مظهرها بمافي ذلك رائحتها الزكية التي نشمها من بعيد . علاقتي بفوز كانت صداقة بشروط طبقية .

فلم أكن أجد أي حرج في حمل حقيبتها أو أبتياع حاجياتها من المقصف أو كتابة بعض واجباتها أو فروضها الدراسية . كنت أقوم بهذه الأعمال لها بكل أريحية لأنها كانت تمدني بالسعادة وتقربني أكثر منها وهي المتهمة بالغرور والتعالي على الجميع .

كان تفضيل فوز لي وتقريبي منها مصدرا لفخري في المعهد .. ومن ناحية أخرى فقد كانت من بين الناس القلائل جدا الذين لم ينفروا مني أو يتهكموا علي بسبب لوني .

طبعا فوز لم تكن ملاكا نازلا من السماء لكنها كانت تحاكي تقاليد الأسرة التي تطمح للانتساب لها ذات يوم . فكانت تريد مرافقة شخصية سوداء وديعة وأمينة وصموتة لتكون مستودع الأسرار ومصدر المباهاة بالحشم ، فقمت بدون أن أعي تماما بكل متطلبات الدور .

في السنة الثانية من دراستي في المعهد كانت صداقتي بفوز قد توثقت تماما وصارت كل منا مستودع أسرار الأخرى . حين زرتها في منزلها الجميل وقابلت والدتها شعرت بسعادة لاتوصف أبدا . كانت تلك المرأة المتوسطة في العمر في مثل سوادي أو أكثر ..

فغشيتني الملائكة برحمتها وتنفست الصعداء .. !!

وصارت فوز أقرب لنفسي من أمي وأبي وكل من على وجه الأرض. ومقابل سماعي لأحلامها الساذجة وخططها في إستعادة (نسبها الضائع) كانت تصغي لي بحب في المرات القليلة التي أفضفض لها شيئا من ذكرياتي الموجعة .

قلت لها بأنني بعد كل إنكسارات قلبي لم أعد افكر في الشباب أو في الحب فضحكت وهي ترد علي :

ليس العيب فيك ولا في الحب لكن الحظ إذا خاب مرة فهذا لايعني بانه سيخيب كل مرة .

وقبل أن تنتعش أية جذوة أمل في داخلي تابعت بكل صراحة :

هل رأيت أمي إنها ليست جميلة أبدا وبشرتها أكثر سوادا من الشيلة مع ذلك فقد حظيت بحب وسرير لاتحلم بهما أمرأة ولولا الوشايات وكيد النساء لكنت معها الآن في المكان الطبيعي الذي يليق بنا .. حين تأملت في كلامها وجدته يحمل قدرا كبيرا من الوجاهة أو هذا ماكنت أريده .

كانت عواطفي متقدة بين جوانحي مثل مرجل يغلي وكأنني اصدق مثال على سخونة السوداوات التي يقولها الناس . وكانت هذه العواطف تفور أكثر كلما سمعت قصص البنات ومغامراتهن وخاصة ماكنت تفشيه لي فوز من أسرارها الشخصية .

لمست فوز في تلك العاطفة الجائعة المشبوبة ، فقادتني بيدي لحديقة المتعة السرية حين عرفتني بفتى طيب قبلني على ما أنا طالما كنت أتعاهد علاقتنا بالعطاء والمنح كما اوصتني فوز قائلة : خليه يذوق وأتحداه يخليك .

كأن فوز أرادت أن تقول لي : بمجرد أن تمنحي لن يفكروا في لون بشرتك .. !!

كان علي أن أختبر الفرضية بنفسي ، وقد فعلت لأعرف المقصود بقولهم :

كل النساء سواء حين تطفأ الأنوار .. !

(أعطيت)فلاح أبن البادية والحسب والنسب والعائد لتوه بدرجة علمية من الأزهر ، أعطيته بمقدار محسوب ، فلم يعايرني بسوادي ، هل كان سيفعل وهو ينشد دفء صدري ؟!

لم أكن بخيلة كما كنت مع منصور أوسواه، ولم أكن سخية إلى درجة إهراق كل شيء على مذبح العلاقة. أتخذت موقعا متوسطا ، وهو يعني في رياض تلك الأيام ، وفي الوسط الذي قادتني له فوز ،

أن للمتعة أكثر من طريق، وإن القانون الساري في عرفهم هو : كل شيء ماعدا ذاك الشيء .. !!

يالنفاق هؤلاء الشباب وخستهم ، حين يتغزل فلاح بي أخجل جدا لأنه يصفني بأوصاف لاتمت لحقيقتي بصلة . لم يكن الحب أعمى ولم أكن غبية لأعرف بأن مايجمعه بي هو الأحتياج الجسدي الذي لو قاومته أو صددته لذكرني مشكورا بتاريخ العبودية منذ نشاة الأرض حتى يومنا مستشهدا بكل تراث الأزهر .

كنت مع فلاح وفوز مع صديقها نشكل رباعيا منسجما ومتناغما وحريصا على الكتمان والسلامة .

كانت جلساتنا المشتركة تتم في بيت خال في الملز تعود ملكيته لوالدة فوز حيث أعطوه لها كتعويض قبل أن يلقوا بها في الشارع ..

كانت أمسيات حافلة بالشوق والمغامرة التي تزيد لذتها كلما حفتها المخاطرة والشعور الدفين بكسر التابوهات التي علاها غبار السنين .

كانت الجلطة قد هاجمت أبي مرتين في ظرف بضعة اشهر فقتلت فيه القوة والعنفوان . خفت رقابته علي كثيرا وصار خروجي من البيت ودخولي مثيرا للألسنة السليطة ، وصلني بعض الكلام مثل:

بنت العبد والمصرية وش يرجى منها .. ؟!

لكن لم أعد سهلة الإنجراح كما كنت ، لقد أشتد عودي إلى حد أن أضرب بالناس وبكلامهم عرض الحائط غير هيابة ولا وجلة . ولولا ذلك اليوم لربما أنرسمت حياتي في مسار آخر غير ذاك المسار .

لا أحد يدري عن مشيئة الأقدار أو حكمها الأهوج المكتوب على صفحة الجبين . فبينما كنا نحن الأربعة في بيت الملز ذات مساء حدث مالم يكن في حسبان أي منا ..

لقد تسلق رجال من الهيئة الجدران حتى أطبقوا علينا .. من الواضح أنهم كانوا يراقبوننا من زمن بفعل وشاية احد الجيران .. علت صرخاتي وصياح فوز حتى أجتمع رجال من الشارع وأخذت الرؤوس تتزاحم على عتبة الباب يدفعها الفضول والتشفي .

حرزت عناصر الهيئة الشراب وقمصان النوم وقبل أن يجرجروننا خاض أحدهم وهو شاب يافع بقدميه في بطني وركلني مرارا وقد أنحسرت تنورتي وأنكشف ساقي بينما هو يقول :

الله يلعنكم يا أفارقة بليس .. !!

لم يكن حظ الآخرين أفضل مني لكن كل منا كان يومئذ في شغل شاغل يغنيه .

الرغبة في الموت وأن يكون الانسان نسيا منسيا هو أصدق وصف لشعور إمرأة تقبض عليها الهيئة في وضع كوضعي .. وإن كان قد توقف الركل الوحشي ونحن محشورون في السيارة فلم تتوقف الألفاظ البذيئة والفاحشة التي لاتتلائم مع السمت أو الوقار المفترض لهؤلاء الرجال .. !!

بدأت أشعر بالغثيان وكان الإستفراغ من عاداتي الأزلية حين أكون مضطربة بشدة . لم أقاوم القيء ، فأتسخت عباءتي وأنتشرت الرائحة المميزة ، فسمعت السباب مجددا ،

أما فوز فلم يتردد لها نفسا وكأنها راحت في نوم أو غيبوبة .. في مركز الهيئة فصلونا عن بعضنا ،

تركوني نحو ساعة في غرفة صغيرة تغلي من حر أغسطس ، وبضع جرائد تسد فتحة المكيف الفارغة . تكورت على الأرض ملتفة بعباءتي العابقة برائحة القيء .. وشعرت بأنني أعيش كابوس لابد سأصحو منه بعد دقيقة أو دقيقتين لأستعيذ من الشيطان وأنام على جانبي الأخر .

لكن هيهات فهذه كوابيس الصحو لا كوابيس المنام .. بعد أن قتلني رعب الأنتظار ، دخل الغرفة رجل ملتح قصير يميل إلى السمنة . ومع أنني في موقف لم يكن يعلم شدته وصعوبته غير الله إلا أن عيني وقعت غصبا على أسفل ثوبه القصير الذي يكشف عن نصف ساقه المشعرة ..

فتذكرت من أنا في قبضته فدب الرعب أكثر في قلبي .. كان واقفا حين رفعت رأسي إليه فقال: قومي .. !

نهضت لأقابله تماما ورائحة القيء تصاحبني ، وكنت أفكر في عبارات التوسل والاستجداء المناسبة التي سأصبها على مسمع هذا المطوع عساه يتركني أذهب لأهلي قبل أن تصبح فضيحتي على كل لسان . لكنني فوجئت به يمد يده ويهصر ثديي الأيمن بكل قوته وعلى شفتيه ابتسامة صفراء مخيفة .

صرخت من شدة الألم والرعب وهول المفاجأة وابتعدت إلى الخلف بحركة انعكاسية فأعاد الكرة ثانية بشكل أقوى وهو يصر أسنانه ويقول : ياحبكن للحرام .. !

خرجت مني الكلمة وكأن روحي تتحشرج في حلقي: ياقليل الحيا .. !!

رد وقد ضاقت عينيه من شدة الغضب : إيه ياالعبيدة الفاجرة أنا قليل حيا وهذا هو الدليل ..

قال عبارته وكفه هذه المرة تنزل إلى أسفل ، وتخبطني مرتين متتاليتين هناك ، في وسطي .. شعرت بمهانة بالغة يجللها الاندهاش ، قد أكون خاطئة لكنني لست (شيئا) مشاعا لأي عابر يريد أن يلمس .

خرج مسرعا وكأنه يهرب، فاستغربت أن يأتي أحدهم بعد طول انتظار ليمارس معي فعلا منكرا ويلقي علي بكلام ابله ثم يذهب. من الواضح أن هذا أسلوبهم في تحطيم الأعصاب، أو أعصاب النساء خاصة . تمنيت ساعتها لو يدقون عنقي أو يلقون بي من شاهق شريطة أن يرحموني من هذا الانتظار المتوجس القاتل الذي لا ادري نوع التحرش الذي سيعقبه .

لاتصدقهم حين يقولون إن العقوبة التي يحكمون بها هي للتأديب والزجر بل هي لإلحاق المهانة ، أكبر قدر من المهانة، ولإيلام روحك قبل جسدك أو قبل طينك البالي .

حكم علي مثلما على فوز بالسجن سنة ونصف والجلد 300 جلدة متفرقة ، ولا أحسب أن هناك عقوبة تضاهي الجلد في خستها ولا آدميتها ، خاصة حين كنت أنسى بشريتي وأنا متكومة للسوط مثل الكلاب السائبة والحمير .

ستبقى السياط تلسع ظهري الأسود وتشويه مثل حروق النار ، وأنا استمع للشيخ الذي يزور السجن أسبوعيا ليصم أذني بحديثه المكرور عن التكفير والتطهير ..

فأسأل نفسي: أي تطهير يأتي مع السوط .. ؟!

التطهير طريقه الغفران لا السياط .. تجربة السجن أوشكت أن تحيل طالبة معهد المعلمات إلى فيلسوفة صغيرة .. !!

كان هذا الشيخ الأعمى لايتوقف عن ذكر الأيات والأحاديث وقصص السلف بينما فوز بجانبي تتأفف قائلة : لعنبوهم مايملون .. نفس الكلام .. حفظناه .. !

وبدوري حفظت خطل فوز ، فقد شارفت السنة على الانتهاء وهي لاتتوقف عن الحلم بأن العفو من جهات عليا سيشملها لمكانتها السامية وأنها لن تنساني ..

لكننا فعليا تحولنا بعد أسابيع قليلة إلى منسيات، حتى زيارات والدتي ووالدتها كانت تقل تدريجيا حتى كادت تنقطع .

لم تكن هناك أية برامج تربوية أو اجتماعية لإعادة تأهيلنا . فقط أحاديث الشيخ الأسبوعية وقسرنا قسرا على الصلاة مع حفظ أجزاء من القرآن . كنا ننعم بسجن نموذجي .. !

والدي توفي وأنا هناك فلم اشعر بأي حزن ، ولا بأي ذنب لعدم الحزن ، ربما لأن أمي قد أخبرتني في إحدى زياراتها القليلة أنه قال لها بأنه سيرفض استلامي عند انتهاء محكوميتي مما كان يعني عمليا استمراري في السجن أو تحويلي لدار رعاية الفتيات الذي هو سجن آخر مع اختلاف المسمى .

قلت لنفسي: أخذه الله ليرتاح من ويلات الجلطة وأرتاح بدوري من ويلاته هو . لم أستشعر حبه وحنانه وأنا طفلة بريئة فهل سأحظى بشيء منه وأنا شابة خاطئة .. ؟!

فليذهب مرحوما إلى حيث لامكان ولا زمان ، فذلك سيضمن لي صداعا أقل وحرية أكبر حين أخرج من بين هذه الجدران الأربعة .

تجربة السجن لم تتح لي بأن أكون أكثر صلاحا ولا أكثر فسادا. خرجت منه كما دخلت إليه لولا مساحة السواد التي ازدادت في قلبي .

لقد صرت أكثر حقدا وضغينة على الناس الذي ساهموا في ظلمي وتهميشي . تمنيت لو يختبر الخلق مرارة ألمي ولايجدوا من يسعفهم أو يقف إلى جانبهم .

مع ذلك كان للسجن حسنة وحيدة ذلك أنه جعلني أرى عالم الرياض السفلي ، حيث القاتلات والسارقات والقوادات ومروجات المخدر ..

جعلني أرى وجه المدينة الآخر فأعرف بأن للتعاسة سلم طويل من ألف درجة .

فهل أنا أوفر حظا .. ؟!

كنت مع فوز وأخريات نشكل نسيجا بريئا وسط غابة الجرائم الملتفة. فلم نسرق ولم نقتل ولم نؤذ بشرا. لم نفعل سوى أن عشنا مشاعرنا التي جبلنا الله عليها. عشناها في الخفاء فلم نجاهر بمعصية ولم نتخذ سلطة ولم نصدم ذوقا .

كنا نهرب من الوحدة والاحباط وسوء الحظ إلى دفء الحب فانتهى بنا المقام في عنبر واحد مع شرار الخلق إنتهينا كذلك لأننا أتينا من القاع .

وويل لمن يأتي من القاع في مجتمع الأصل والفصل .. فلولم أكن رمانة وفوز هي فوز لبتنا في فرشنا وبيوتنا منذ ذلك اليوم الذي تسلقوا فيه الجدران علينا.لو لم نكن نحن لكان هناك ألف سبب للستر ، والف سبب لدرء الشبهة، وألف سبب للعفو .

لم تستقبلني والدتي بالورد والأحضان وليس بمقدوري ان ألومها على ذلك الجفاء ، فهي في آخر المطاف أم مجروحة من مآل ابنتها. طوي قيدي من معهد إعداد المعلمات بمجرد الحكم علي ودخولي السجن أي قبل بضعة أشهر من التخرج فكأن زماني بخل علي حتى بمؤهل من معهد ثانوي .

كما أن سجلي الملطخ بحكم في قضية تمس الشرف يعني أنني لن أجد وظيفة إدارية أو تعليمية في إحدى المدارس أتسلى بها وأعتاش .

جلست أشهرا طويلة في البيت أمضغ الفراغ والملل .. لم يكن هناك حوار أو كلام بيني وبين والدتي ، فكأن الجرح خلق مسافة طويلة بيننا وعمقها . كانت كل واحدة منا كأنها تهرب من لقا ء الأخرى ، فأنا تعمدت أن أنام وهي مستيقظة وأصحو وهي نائمة ، وأظن نظام نومي المقلوب ناسبها لأنه أراحها مني .

كاد هدوء البيت وصمته أن يصيبني بالجنون ، الهدوء يوحشني بعد ضجيج السجن ومناوشاته وصخبه .
أما فلاح فقد صار مجرد طيف لم أعد متأكدة من حقيقة وجوده . لكن حظوظ الذكور أسعد دائما ،

فقد خرج من السجن إلى المطار وقد قرر أن يقدم في القاهرة على دراسة الماجستير. صاحب فوز رتب له أحد أعمامه عملا في الظهران ، فذهب ليبدأ حياته من جديد .

أما أنا وفوز فكان نصيبنا كما قالت والدتها ساخرة مؤدبة : الضراط الحامي ، ما أخذتن غير الضراط ..!

وددت لو أسألها وأنت ياخالة هل نالك من قسمة الدنيا ونصيبها غير الضراط . هل للنساء أصلا في هذه البلد وزد على ذلك إن كنا سودا .. غير الضراط .

هنا لو أردت ان أصف لضاع مني الكلام وأختلطت المشاعر ، فالسماء لاتصم أذنها دائما عن دعاء المساكين.
قالت لي فوز وهي أم المغامرات وأم الجنون : جايبة لك وظيفة ماتحلمين بها .. !

طبعا لن أسألها إن كانت الوظيفة على هذا القدر من الروعة فلم لاتكون من نصيبك انت لأنني أعرف الجواب الذي سمعته مرارا وتكرارا . فهي لن تشغل نفسها بشيء غير إثبات نسبها غير المثبت .

خربشات الحب فقط هي ماقد تتسلى بها من حين لآخر حتى يأتي الله بالفرج أو تأتي به بعض الشخصيات النافذة التي تتسلى بها ومعها ..

هي أبنة عبدة لكنها ليست أبنة عبد خائن لايساوس فلسا ، حتى لو أجتمع أهل الأرض على هذا الرأي .
سمعت هذا الكلام منها حتى حفظته عن ظهر قلب .

الوظيفة كانت فعلا كما قالت فوز لا أحلم بمثلها .. أسمعي يا رمانة هو جراح بريطاني يشتغل في التخصصي راتبه 120 ألف . سمعتي 120 ألف .. !! يبيكي مدبرة منزل . يعني فنجال نسكافه الصبح وقميصين تكوينهم والسلام .. !!

سرحت قليلا ودارت الأفكار في رأسي وكدت أضحك من العرض الغريب. بالعربي الفصيح سأكون شغالة عند خواجة.سألتها: كم أولادهم .. ؟

ردت ببطء : هو .. عازب بس تراه رجال كبير .. يعني قولي خمسين .. خمس وخمسين .. !

كلانا فوز وأنا نعرف بأن جنون المغامرة هو مايقودنا ، الفارق بيننا بأنني كنت على موعد مع (التحول الكبير) الذي سيأتي ذات يوم ويجرفني كالطوفان ..

الذي سيحولني من مغامرة مجنونة إلى متزمتة وسواسية تطمح لو ساقت الناس المفطورين على الفساد والافساد سوقا إلى حصن الفضيلة التي علموها أن لها عنوان واحد وشكل لايتبدل ولايتغير .

قلت لها : وأمي وش أقول لها ؟؟

ردت فوز وكأنها قد رتبت كل شيء في رأسها قبل أن تقدم لي عرضها الغريب :

قولي يبي يشغلوني مراقبة في سكن الطالبات الداخلي .. وأبزورك كل شهر يومين .. !!

أنفجرت ضاحكة وانا أقول : حلووووة الكذبة ياحلوة .. حتى اليومين ذي مالها داعي .. !!

ردت وهي تغمز بطرف عينها: وترا ذا الطبيب يحكي شوي عربي مكسر .. بعد ثلاثة أيام فقط من عرض فوز كان المزارع السوداني يقودنا إلى المطبخ من بابه الخلفي حيث الدكتور شوون يشرب قهوته أمام طاولة خشبية صغيرة . بدأ يتفحصني بعينيه الخضراوين ويهز رأسه كأنها علامة الاستحسان ، أما المجنونة فقد همست في أذني كشيطان من الشياطين : ياحظك .. وش ذا الأطخم .. !

لم أمسك نفسي عن الابتسام وهو يتعلم نطق أسمي : رومانا .. !

عادت فوز للهمس : يازين أسمك المخنز على لسانه ..

لم أجد أية صعوبة في فهم واجباتي المنزلية وكان للدكتور شوون نظام حياة بسيط سهل كثيرا من مهمتي . أعد افطاره المتقشف في السابعة صباحا ، يتناوله ثم يمارس تمريناته لنصف ساعة ويخرج إلى المستشفى ، وبين السابعة والثامنة مساء أعد له العشاء . كان رجلا عمليا جدا ، وقد فهمت فيما بعد أنه فضل العيش في هذه الفيلا الهادئة في شمال الرياض بعيدا عن سكن المستشفى ، أو المجمعات السكنية التي يفضلها الغربيين لحبه للعزلة والهدوء ، فوقته الذي يمضيه في البيت أيام عطلته الأسبوعية يقضيه منشغلا بأبحاثه ..

وفي بعض الأحيان كنت أراه يتسلى بمشاهدة فلم عن طريق جهاز الفديو ، أو يمضي بعض الوقت يقص الزرع ويعتني بالورد تاركا السوداني (طه) يمزمز كأس الكركديه ويقرأ الجريدة السودانية الصادرة قبل اسابيع للمرة العاشرة .. !

قلت لنفسي بعد عشرة أيام من العمل : ألا يمل هذا الخواجة من هذا الأكل الماصل .

كنت أسلق له الجزر والبروكلي والبازلاء وصدور الدجاج بدون أية اضافات ممايجعل طعمها مقرفا لا أدري كيف يستسيغه . قررت في يوم إجازته أن أطبخ له كبسة بدون أن أستشيره . حين وضعت الصحن أمامه وكلي فخر نظر نظرة خاطفة وقال: كبسا .. !

تابع موضحا بأنه أكلها في المرات القليلة التي كان يشترك فيها مع زملائه السعودين في مناسبات عمل ، لكنه لايفضلها أبدا لأنها غير صحية . مع ذلك حين عدت له وجدته لم يبق حبة واحدة في الصحن. جعلني هذا أختار يوما في الأسبوع وأطبخ له على مزاجي : كبسة أو قرصان أو جريش .

كنت أفرح جدا وأنا أراه يأكل بشهية ولايسأل عن خضاره الماصخة . كان الدكتور شوون يعاملني بأحترام ، وهو بشكل عام رجل هادئ و (وسيع صدر) رأيته يتحمل بعض أخطائي بصبر ،

مما جعلني أرتاح لمقامي في بيته . فالعمل قليل والراتب مجز كما أن لا سيدة هنا تأمر وتنهى ، والأهم هو نوعية الحياة التي توفرت لي في هذه الفيلا ، فأنا أقضي وقتا طويلا أمام التلفزيون ، أو أشاهد فيلم الفديو الذي شاهده هو ليلة الباحة ، أو أمارس مثله الجري علي جهاز السير الكهربائي والموسيقى الكلاسيكية تشنف أذني. الجمعة كان يوم اجازتي فأذهب إلى فوز أو السوق لكني كثيرا ماكنت أفضل البقاء في فيلا الدكتور شوون على أي شيء آخر .

في تلك الليلة التي وافقت رأس السنة كان الدكتور شوون ينتظر زميلا قال إنه وصديقته سيقاسمانه السهرة.بدأت منذ الرابعة أرتب في الصالون وأعد الكؤوس وأنسق الورد الذي أتى به طه .

دخل علي الدكتور حين تجاوزت الساعة الخامسة بينما أنا في المطبخ شاردة وفي يدي فضية صغيرة ألمعها . كان يرتدي روب الحمام بينما قطرات الماء تلمع فوق شعره الأشقر المختلط بالبياض . أقترب مني بدون كلمة وتناول الفضية من يدي وأخذ يحكي لي بعربيته المكسرة حكاية شرائه لها من سوق فضيات في تايلند. لم أعي كل ماقاله لأني كنت متفاجئة جدا من تصرفه الذي لم يسبق وقام بمثله مطلقا.كان واضحا أنه أراد الأقتراب مني على هذا النحو الشديد لدرجة أن شممت رائحة صابونه العطر . ظل يكسر الكلام ، وينظر في وجهي ، أما أنا فقد أنعقد لساني تماما ، وأخذتني الرعدة ، وفوق هذا شعرت بإنجذاب رهيب نحوه ، ولم أتمن في هذه الساعة من الدنيا شيئا غير أن يأخذني في أحضانه ويمطرني بقبلاته .

ظل يحكي كلاما فارغا بلا معنى وأنفاسه الدافئة تلفحني .. هل تراه يريدني .. ؟

هل يعقل هذا .. ؟ هل يريد سوداء وهو الذي يقطر وسامة .. ؟ تراه يتعمد أن يثيرني .. ؟

هل أنا يمكن أن أعجبه .. ؟ أم أنه في شوق لأمرأة وحسب .. ؟ أي إمرأة في مدينة كالرياض .. ؟

لم يتركني لمزيد من الهواجس فقد أخذني بنعومة في أحضانه حتى شعرت بأنني حمامة خفيفة حلقت في السماوات .

تطورت الأمور بيني وبين الدكتور شوون بعد ذلك بسرعة كبيرة .. كنت مذهولة من مشاعره المتدفقة، غير مصدقة لما يحدث بيننا. مهما أوتيت من سعة خيال وعشق للمغامرة فلم أكن لأقترب أو لأحلم مجرد حلم بشخص مثل الدكتور شوون ، يملك صفاته ومؤهلاته الجسدية والعقلية ، ولكنها الأقدار التي تجري بنا في وجهة قد تجعل من الحقيقة شيئا يفوق الخيال في غرابته. بقيت لاسابيع طويلة لا أصدق ما أعيشه ، فأنا اقاسم شوون غرفة نومه وأنعم بدفئه. وأتناول الطعام على طاولته ، وأحظى بمكالمة هاتفية منه في منتصف النهار ليقول لي من بين أعماله المتراكمة ، كم كنت مذهلة ليلة البارحة .. !!

وكم هو في شوق ..وددت لو كان بمقدوري أن أفشي أمر علاقتنا لكل الدنيا، خاصة لمن نبذوني أو كرهوني أو بصقوا علي لسوادي. مع ذلك فقد خبئت السر حتى عن فوز التي لم أعتد أن أخبئ عنها شيئا، كأنني خشيت من غيرتها أو حسدها .. ! فكنت أجيبها إجابات مختصرة أو أغير الموضوع إلى غيره كلما سألتني عن الدكتور مخافة أن تستشف بلؤمها المعتاد أن هناك مياها تحت الجسر .. عشت أغرف من جنة النعيم غرفا ، كما لو أن الزمن قد صفا لي إلى الأبد . صرخت في طه وكدت أطرده من عمله مثل أي سيدة بيت وهو يلمح لي بأن هذا هو ديدن الدكتور مع كل شغالة : هكذا كان مع المغربية والتايلندية والأثيوبية .. كلهن إنتهين في سريره .. !

مضت الساعات والغيرة تنهشني نهشا، أنتظر عودته من المستشفى لأنفجر فيه .. لكن أبدا لم يحدث هذا ولايمكن أن يحدث .. بمجرد أن دخل ركضت إلى ذراعيه الممدوتين بشوق ، وانتظرت كفه كالعاده التي تتحسس ظهري صعودا وهبوطا . أنظر في المرآة ونحن متعانقين ، أنظر في قامته وبشرته وشعره ، وأتذكر تعليمه وعمله ، وأقارن كل ذلك بنفسي ، فيصيبني شيء يشبه الخرس عن أي لوم أو عتاب .

حين تخون الحصافة شخصا مثل شوون فماذا عساي أقول .على غير عادته أستقبل ذات مساء جراحا سعوديا من زملائه ليتناقشان في نتائج بحث ينفذانه مشاركة. عاود هذا الجراح الزيارة من يوم الغد ، ثم كررها ثالثة بعد بضعة أيام . لم أرتح مطلقا وأنا أقدم الشاي وأتفحصه ، فلحيته كثه وغير مشذبة وثوبه قصير . رؤيته جعلت ذكرى أولئك القوم تمر كالبرق في رأسي .. مع ذلك فأنا من رحم ثقافة تعرف بالسليقة وتفهم كيف تتقارب هيئة رجل دين مع هيئة جراح بارز حتى تنتفي أية فروقات. لم أترك نفسي للتوجس لأنني قلت بأن شوون بعد عشر سنوات من الإقامة في الرياض لابد أنه محتاط لكل أموره . حين أعيد الأن ترتيب الحوادث فأنا أعتمد على التحليل والربط أما المعلومات فلم أملكها لا وقتها ولا اليوم . فبعد أسبوعين من آخر زيارة قام بها هذا الرجل لنا ، أصبحنا في الرابعة فجرا والهيئة تطوقنا في غرفة نومنا . أنا شبه متأكدة الآن بأن لذلك الرجل دورا بارزا فيما حدث ، وربما أيضا هو أو الهيئة دفعوا المال للمزارع السوداني ليأخذوا منه مايريدون من كلام أو معلومات.ومع أنني وجدت نفسي داخل المصيدة السوداء للمرة الثانية ، إلا أنه شتان مابين المصيرين .

فشوون ظل على رأس عمله موفور الكرامة ، ومن داهم بيته أوقف عن عمله ، لكن عيني لم تقع عليه مجددا. أنا لم امض سوى يومين في التوقيف ثم خرجت معززة.أعرف من سابق خبرة بأن لا احد كان سيقف معي أو يساعدني أو ينقذني من جلد السوط وغياهب السجن .. لكنها السفارة البريطانية التي لم تبخل علي بالمعروف .. !

أفهم ماحدث هكذا لأن هذا هو الطريق المعقول الوحيد لفهمه، لكن الشيخ الشاب عبدالمجيد المتوقد ذكاء والممتلىء نشاطا وحيوية ورغبة في خدمة مشروعه أراد أن ينسب العفو لهيئته التي تنشد الستر، بل لمح لي أكثر من مرة وهو يناصحني إلى أن الفضل في العفو يعود له شخصيا ، وإلا فهو خجل من ربه في شفاعته في حد من حدوده .. !!

لقد توسم في مالم أتوسمه أنا يوما في نفسي ، عرف بفراسته أني سأكون لقمة سائغة لـ (التحول الكبير) الذي سيجعلني ذرة صغيرة في مشروع يهدف المجتمع بأسره. عرف بحصافته أنني ساكون وفيه لمشروعه، باذله فيه نفسي، ومغامرة لكن في أتجاه آخر .

ماتعرضت له بعد ذلك من قبل الشيخ عبدالمجيد يصح تسميته بالاحتواء أو غسيل الدماغ، لكنني أعرف بأنه لو لم يجد تربة خصبة لما تمكن من غرس شيء . لقد كنت بعد كل التجارب المريرة التي مررت بها ضعيفة متعبة وقد فقدت طريقي وتاهت مني نفسي وأصبحت بإنتظار الشخص، أي شخص ، يمد لي يده ويربت على كتفي ، حتي أمشي خلفه مغمضة العينين إلى حيث يريد .

كنت قد جربت التحرر فذقت عذابه قبل هناءه . فمن بعد فقدي لشوون أصبحت الدنيا لاتساوي عندي جناح بعوضة .. وشعرت بحزن آدم بعد أن طرد من جنته . شوون أعطى حياتي معنى ومذاقا وإثارة لاتنتهي، وبخروجي من حياته جربت اللوعة وتجرعت الحسرات فكان الشيخ عبدالمجيد هناك على أهبة الاستعداد ليطويني تحت جناحه . دخلت معه (ملكوت الله) فحسبت بأن هذا هو دواء جراحي ، ففي الملكوت لاتوجد عذابات الحب ، ولن أحمل فوق كاهلي وزر وراثتي . في الملكوت سأتطهر رويدا رويدا كلما أقتربت من خالقي وكلما خاصمت جسدي ورغباته وكلما أرشدت الناس الضالين إلى الصراط المستقيم.بعد صلاة الجمعة من ذلك اليوم ، وجدت على الباب امرأة تقول بأنها شقيقة الشيخ عبدالمجيد .

أنتفضت خوفا وأنا أستدير ناحية وجه أمي الأصفر وأستولت على الأفكار السوداء . قالت المرأة مسرعة وهي تمد لي ظرفا صغيرا :

هاذي الخمسة الأف من الشيخ وتراه يحلف بالله إنها هدية لاهيب زكاة ولا صدقة ..

تنفست الصعداء ولم يعد يهمني أن أسال ماهي مناسبة هذه الهدية التي يقسم أنها هدية . دعوتها للدخول ولكنها تحججت بالعجلة وغادرت.يبدو بأن مجيئها كان بدافع توثيق العلاقة بيننا وأن تاخذ هذه العلاقة شكلا أسريا مطمئنا لي .

كما يبدو بأنه أنتظر بعد ذلك إتصال مني فلما لم أفعل ففوجئت به يبادر هو في الاتصال ، وبعد السلام والمجاملة، فجر قنبلته غير المتوقعة :يا أخت رمانة ودك توظفين .. ؟ تراي أقدر أساعدك .

أتبع سؤاله بكلام عن الرزق الحلال والعمل الشريف. همهمت وقلت: ياليت بس أنا وين والوظيفة وين .. وكنت أشير بذلك لانقطاعي عن الدراسة وكذلك للحكم القضائي الذي صدر بحقي، لكنه تابع مستبشرا : أجل أبشري .. تعرفين مركز الدراسات الجامعية حق عليشة ، من الأسبوع الجاي تبي تداومين سكرتيرة في مكتب العميدة أو وحده من الوكيلات .. بس هاه نبيك تبيضين وجيهنا .. !

توالت بعد ذلك الاتصالات والأحاديث بيني وبين الشيخ ، كنت أتغير على يديه يوما بعد يوم ، كان يعيد خلقي من جديد ، يفككني قطعة قطعة ثم يعيد ترتيبي على النحو الذي خطط له .. والمدهش أنه لم يكن يجد حرجا في تكليمي في أي وقت ، في التبسط معي في الكلام إلى حد التلطف والمزاح .. ربما لهذا أختار (عبدة) لايستحي منها .. !

أو ربما كان يعتبر تلك من الصغائر التي لامناص منها في سبيل المشروع العظيم.بعد ذلك عرفت المطلوب .. مركز الدراسات الجامعية هو أخطر معقل نسوي لكنه ليس الوحيد الذي سيسهلون لي بعد ذلك دس أنفي فيه حتى أنقل للشيخ كل رائحة أشمها هنا او هناك:شوفي يا أخت رمانة فيه دكتورات بالاسم في كلية التربية والأداب نبي أخبارهم أول بأول .. وياليت نعرف وش يقولون في المحاضرات .. ودامك سكرتيرة فنبي صورة من كل تعميم .. أو صادر أو وارد في موضوعات نبي نقولك بعدين عليها ..!

إذا المهمة تكمن فيها روح المغامرة وهذا هو ماجبلت عليه . والمهمة ايضا تنبض بروح الصحوة وهذا هو طريقي الجديد الذي قادتني له الخيبات والبحث عن الخلاص أو عن نافذة نور جديدة . سرعان مااستلمت عملي كسكرتيرة في مكتب وكيلة أحد الأقسام بكلية الآداب بمركز الدراسات الجامعية بعليشة. لم أكن اجيد شيئا من أعمال السكرتارية كالطباعة أو كتابة الخطابات الرسمية حتى إعطاء تاريخ ورقم للصادر ، أو تنظيم الوارد في ملفات كان شيئا يستغلق علي. كنت تقريبا بلا خبرات البتة لا في السكرتارية ولا في أي شيء آخر، مع ذلك فإن نفوذ عبدالمجيد أو من هو فوقه جلبني لهذا الموقع بكل سلاسة وفي ظرف أيام معدودة حتى بدون مقابلة شخصية كما هو معروف في هذه الحالات.كنت لسذاجتي أتوقع بأنني الوحيدة هناك لكن بمرور الأشهر عرفت بأن هناك جيشا من المتعاونات الرسميات إن صحت التسمية، أو المتعاونات من تلقاء أنفسهن خاصة من الجهاز الاداري العامل بالمركز واللواتي يبادرن بالاتصال بالمفتي أو بالهيئة كلما لاح لهم في أنشطة الجامعة أو محاضراتها أوندواتها أو أستاذاتها مايريبهن .. !

واضح أن الشيخ عبدالمجيد تعمد أن يتركني لشهرين بدون أي سؤال أو إتصال حتى أندمج في جو الجامعة وأكتسب بعض الخبرة. بعد ذلك أراد أن يكلفني بمهمة محدودة ليختبر مدى كفاءتي وإخلاصي ، فطلب مني أن أعرف مايدور في محاضرات الشقيقتين سعاد وعزيزة المانع (الأولى تدرس في كلية الأداب والثانية في كلية التربية) وأيضا مايدور في محاضرات فوزية البكر . كما طلب مني أن أنسخ ملزمة أستاذ مصري أسمه رأفت بسيوني يدرس مقرر المسرحية في قسم اللغة الانجليزية لكثرة الملاحظات التي وردتهم عن محتوى هذا المقرر . هو لم يطلب مني كتابة أي شيء بمعنى أنه أراد أن أوصل له معلوماتي بشكل شفهي لكنني أردت أن أتفوق حتى أحوز رضاه. وربما أيضا كنت أختبر قدرتي الشخصية ، فقدمت له بعد أسبوعين تقريرا مكتوبا عن ما أراد.لم يكن في الأمر أي صعوبة ، فمنذ اليوم الأول لدخولي المركز كنت قد توجهت إلى المصلى ووثقت صلتي بطالباته وبأنشطته الأسبوعية ، حتى أصبحت وجها معروفا ومحبوبا لجماعة المصلى اللواتي تتوزع طالباته على جميع الكليات.كلفت طالبتين توسمت فيهما سيماء الصحوة المباركة بأن يسجلن لي بعض محاضرات الأختين المانع ومحاضرات البكر . لما أستمعت للأشرطة لم أجد في محاضرات سعاد أي شيء ، فقد كانت مملة وفي صميم موضوعات لغوية وأدبية ، فأشرت إلى ذلك في التقرير .

أما عزيزة فقد كان الأمر معها مختلفا ، فهي تحدث الطالبات في أمور كثيرة كقيادة السيارة وحقوق المرأة وولاية الرجل وتكثر من السخرية والتهكم على العادات والتقاليد وتستشهدا كثيرا بتجربة دراستها في الولايات المتحدة الأمريكية .

فوزية كانت مثل عزيزة لكنها أقل منها حدة وأكثر حرصا، فاشرت إلى كل ذلك في التقرير وأرفقت معه التسجيلات وملزمة الدكتور بسيوني.استبشر الشيخ عبدالمجيد ومدح صنيعي داعيا بأن يثيبني الله عليه. وقد يكون من المهم أن أقول بأنني أظن بأن شريط الكاسيت التشهيري الذي انتشر بعد ذلك على نطاق واسع للشيخ الغامدي وكان يحوي قائمة طويلة من المخالفات الشرعية في المحاضرات والمناهج والأنشطة الخاصة بالمركز والذي تبعته اصدار تقييدات داخلية كثيرة اعتمد بشكل كبير على المعلومات التجسسية التي كان جيش المتعاونات يقدمها .

أستمررت أتلقى تكاليف من الشيخ وأنفذها وفي مرات عديدة كنت أتطوع بنفسي فأنقل له الأخبار التي تهمه ، وكثيرا ماتم إيقاف أنشطة كالندوات التربوية أو الأمسيات الشعرية قبل يوم أو يومين من إنعقادها وبعد الاعلان عنها والدعوة لها ، مما كان يوقع الجامعة في حرج شديد بينما يجعل جيش المتعاونات وأنا منهن في حال من الطرب الشديد خاصة ونحن نرى ثمرات جهودنا المخلصة .

مع ذلك فقد وقعت في صدمة كبيرة جدا وكدت أموت خجلا وحياء من الشيخ عبدالمجيد، ولاأظن بأن المتعاونات الأخريات اللواتي أعرف بعضهن وأجهل أكثرهن كن أفضلا مني حالا.فقد خرجت في ذلك اليوم المشؤوم من نوفمبر مظاهرة قيادة السيارة تتزعمها مجموعة من أستاذات الجامعة وطالباتها بدون أن يكون لنا أي علم بها فقد خلت التقارير التي كتبتها كل واحدة منا لمرجعها عن أي شيء يشير إلى هذا الحدث لأننا كنا نجهله تماما . وقد زاد حرجي لأن الدكتوره المانع والدكتوره البكر اللتان تزعمتا هذه المظاهرة كانتا من أوائل الأسماء التي طلب مني الشيخ متابعتها ، فخيبت أمله مماجعلني أسمع منه ملامة شديدة أطارت النوم من عيني .

صار الجو متوترا في الجامعة بعد مظاهرة نوفمبر، وقد تركزت أنشطة المصلى في الأسابيع التالية على موضوعات معينة مثل مؤامرات التغريب وصون المرأة المسلمة وحرمة الاختلاط وحرمة قيادة المرأة للسيارة، والفساد المترتب على خروج المرأة من منزلها .. الخ .

كما تحركت أذرع عبدالمجيد وأعوانه في قسم الدراسات الاسلامية فرتبت الجامعة أكثر من ندوة دينية حاشدة لمشايخ الصحوة تركزت في هذه الموضوعات، وكانت الطالبات يلزمن من قبل أقسامهن بحضورها إلزاما عن طريق قوائم التوقيع وأحتساب الدرجات .. وبعد بضعة أيام تلقيت على المنزل من الشيخ عبدالمجيد كرتونين يحويان الآف النسخ لفتاوى وقصائد وبيانات تحريضية في المشتركات في المظاهرة طلب مني توزيعها في أرجاء الكليات. طبعا كنت أضطر للبقاء في الجامعة حتى وقت متأخر فإذا خلت في فترة مابعد الظهيرة الأروقة والمباني من الطالبات و الأستاذات كنت أقوم بمعية 3 عاملات من الجنسية الفلبينية بتوزيع المنشورات في كل مكان وتعليق بعضها على الحوائط ، مع أن حارسات الأمن في صباح اليوم التالي يبدأن بجمع الأوراق سريعا حسب الأوامر التي تعطى لهن من العمادة ، لكن الرسالة طبعا تكون قد وصلت كما نريد. فقصيدة عبدالرحمن العشماوي كانت طالبات المصلى يتغنين بها ملحنة على طريقة النشيد الديني ، لكن (التجسس المضاد) سرعان مانقل للعمادة هذا الخبر فتم تكليف أستاذة بالأشراف المباشر على كل نشاط في المصلى بحيث لايجاز إلا باطلاعها عليه . هذا الإجراء حد كثيرا من نشاطنا فنقلت تذمري للشيخ وكانت المفاجأة أن المصلى سرعان ما عاد لإنطلاقته القوية ولم نرى وجه الأستاذة المكلفة مجددا .. !!

أضطربت قليلا علاقتي بالشيخ في هذه الفترة ، لأنه كان يكثر من طلباته ويود لو يعرف كل مايدور في المركز كما كان أحيانا يطلب مني طلبات عويصة . مثلا كان يريد أن يعرف النقاشات التي تدور بين كل أستاذة بديلة أمسكت مقرر ما مكان أستاذة موقوفة وبين الطالبات لأننا كنا في منتصف الفصل الدراسي وقد أدت المظاهرة إلى إيقاف عدد من الأستاذات عن التدريس ، فكان يريد تسجيلا للمحاضرة الأولى التي تدخل فيها الأستاذة البديلة على الطالبات :

كيف تقدم نفسها .. ؟ ماذا تقول عن سبب إيفادها للتدريس في منتصف الفصل الدراسي .. ؟ هل تتطرق للمظاهرة .. ؟ ما موقفها .. ؟ وماموقف الطالبات من المظاهرة .. ؟ وماموقفهن من الأستاذة الموقوفة .. ؟

كان الوضع في الجامعة قد صار حساسا ويغلي وقد تعمدت أن أتجاهل هذا الطلب من الشيخ وأن أهدئ من ظهوري في المصلى ولم أحب أن أكثر من تكليفات التسجيل حتى لا أظهر في الصورة أمام رئيساتي ولكن الشيخ لم يتفهم ذلك . أيضا كان مصعوقا جدا من ظهور أسماء جديدة في قائمة المتظاهرات لم يكن معروفات له نهائيا مثل أستاذة المناهج وطرق التدريس الدكتورة نضال الأحمد .

حدث في ذلك الاثناء ما أدخل الراحة والطمأنينة إلى نفسي وأشعرني بما لي من مكانة لدى الشيخ عبدالمجيد ..

الأول .. أن والدتي أحتاجت إلى عملية جراحية لتصغير المعدة ذلك أن وزنها كان في تصاعد مستمر سبب لها سمنة زادت من سوء داء المفاصل المزمن لديها، فقرر لها الأطباء هذه العملية .

لم تكن مؤهلة لإجرائها في مستشفى حكومي لكونها تحمل الجنسية المصرية ، كما لم يكن لي طاقة على المستشفيات الأهلية ، فحدثتني نفسي أن أتجرأ وأحدث الشيخ في أمرها . لم يتردد لحظة وهو يعدني بأن الأمر بسيط فـ : والدتك ياأخت رمانة غالية علينا ..

أيام قليلة وكان الأمر قد وصل بإدخالها إلى مستشفى الحرس .

الثاني .. أن ابن خالي الصيدلي قدم إلى الرياض للعمل بها ومعه زوجته التي تمنت علي أن أبحث لها عن فرصة عمل . ويبدو بأن الشيخ عبدالمجيد كان مستعدا لتلبية طلباتي بالذات تلك التي تتقاطع مع مصالحه ومنها توظيف قريبتي جيهان .

فقد هاتفني بعد أيام قليلة ليقول:سنوظف جيهان في عمل ميداني ..وقبل أن افتح فمي متسائلة بأستغراب عن طبيعة هذا العمل الميداني ، قال:تعرفين يا أخت رمانة المشاغل النسائية وبلاويها ،

ستر الله على نساء المسلمين. سنعطي الأخت جيهان بطاقة وهمية على أنها موظفة من الدفاع المدني ، فتمر على المشاغل وتقول أنها تريد التأكد من سلامة المنشأة . وكل ماعليها أن تدخل إلى كل غرف المشغل وتنظر وتسأل وتطيل الكلام حتى تبصر كل شيء وتتأكد مما تراه ، فالمخالفات هناك كثيرة .

لم يرق لي كثيرا هذا العمل ، وشعرت تلقائيا بمافيه من مشقة ، ولكنني لم أعارضه فتابع كلامه:

البطاقة التي تقول بأنها من الدفاع المدني تحتفظ بها في شنطتها ولاتخرجها إلا لصاحبة المشغل التي تطلبها أو تشك في أمرها ، وترا الراتب سيسرها بإذن الله ، وسنرفق لكم (كروكيات) بالمشاغل .

لم أاستغرب حين رفضت جيهان ذلك العمل رفضا قاطعا ، خوفا من محاذيره التي أهمها انتحال الشخصية ، فعاودت الاتصال بالشيخ وكلي حرج ، لكنه قال بهدوء:

لابأس فهذا عمل ميداني قد يصعب على البعض، وعندي لها ماهو خير. وش رأيك في وظيفة حارسة أمن في كلية الطب . نحن هناك تهمنا الطالبات بالدرجة الأولى ، لاتعنينا الهيئة الإدارية أو التدريسية .. !

وكما تعرفين يا أخت رمانة حارسة الأمن من خلال حركتها وجولاتها وعلاقاتها بالطالبات يمكن أن تسمع الكثير .

عرفت من خلال حديث الشيخ أنهم لايهتمون في كلية الطب بموضوع الفكر كما هو حالهم مع مركز عليشة ولكن تهمهم بالدرجة الأولى السلوكيات، نظرا لشكهم الشديد في سلوك طالبات الطب وتناهي شذرات من المعلومات إلى أسماعهم عن وجود علاقات خاصة بين بعض الطالبات وأعضاء التدريس من الرجال ، إلى حد تنجيح بعض الطالبات أو تسريب الاسئلة لهن كما قال .حين أذكر الأن هذه الحوادث يحز في نفسي حتى وأنا أبنة المصرية أنهم أستخدموا مصرية كجيهان للتجسس على بنات بلدي .. !

ظهرت جيهان طريفة جدا وعبد المجيد ذكي جدا .. في النهاية هي سودت وجهي عند شيخي ، سود الله وجهها.والحكاية أنها استغلت جيناتها المصرية في توليف القصص والحكايا ، فبدأت تنقل هاتفيا للشيخ أخبار عن طالبات الطب كما لو كنا يدرسن في فلوريدا لا في الرياض ، وكل ذلك بغية الحصول على رضا ومكافآت عبدالمجيد وإلا فما كانت حسب ظني تمضي الوقت إلا متمددة خلف مكتبها تأكل الساندوتشات . عبدالمجيد ليس أبلها فقد أمضى سنوات في عمله وعرف عشرات المتعاونين وتعامل معهم فضلا عن أنني متأكدة أنه يعرف دهاليز وممرات كلية الطب أكثر من جيهان نفسها .

المهم أنها وهي تنقل له مايفترض بأنها معلومات عن طالبات الطب، سألها الشيخ لشيء في نفسه :

هل سمعت بأن فيه مغازلات بين الطالبات ود. محمد المحمد .. ؟

فبادرت الغبية قائلة :

يااااه ..

يا شيخ دا بلاويه كتيره أوي ، وبيشرط عل البنات يكلموه الساعة تنين بالليل .

عاد الشيخ وسألها :

أجل والدكتور مختار الفيصل .. ؟

بادرت جيهان بحماس المعتوهين : أهو مختار ده بالزات ياشيخ لو تفصلوه كان أحسن .

أسم محمد المحمد ومختار الفيصل التي ذكرها الشيخ لم تكن سوى أسماء مكذوبة خطرت على باله حتى يختبر صدق وجدية جيهان حينما رأى كثرة شطحاتها لكنها بانت كأكبر كاذبة على وجه الأرض .

عاتبني بعد ذلك الشيخ عبدالمجيد عتابا لطيفا وذكرني بحساسية عملهم ودقته وحاجته للورعين المتقين أمثالي .. !

عاهدت الله بعدها أنني لن أرشح أي أحد للعمل مع الهيئة حتى لايزيدوا سواد وجهي سوادا بكذبهم أو تقاعسهم .

كانت ثقة عبدالمجيد في شخصي تتعاظم يوما بعد يوم ، ومن جانبي فقد كنت مدفوعة للعمل باخلاص شديد ، ذلك أنني وجدت في العالم الجديد سلوى النسيان .

كما ان الأيدلوجية التي بدأت تنشب أظافرها بقوة في دماغي إضافة إلى تجاربي الجسدية المنفلتة السابقة صارت تريني أن أكثر الناس غرقى في الخطيئة والفساد والمعصية وأنهم بحاجة إلى من يرشدهم أويعسفهم عسفا للتوبة والهداية .

ذات يوم فاتحني الشيخ في مهمتي الجديدة :

يأأخت رمانة نبيك في مستشفى الملك خالد ، باقي الأخوات هالحين يسدون في عليشة.قبلت عرضه مباشرة بدون أن أسال عن أية تفاصيل ، فهذا ينسجم مع روح المغامرة والتجديد التي بقيت من الأشياء القليلة التي لم تتغير في شخصيتي .

مؤكد أن مركز الدراسات الجامعية بعليشه لم يعد بحاجة إلى عمل كثير ، فنحن الآن في بدايات 1993م

وكل ما أرادوه تقريبا تم لهم بتضافر الجهود المباركة . الأستاذات المشاغبات اللواتي قدن المظاهرة قاعدات في بيوتهن ، والمشاغبات اللواتي لم يقدن أي مظاهرة محولات لأعمال إدارية لاتهش ولاتنش .

نظام الساعات ألغي ، وبوابات المركز تغلق كالمدارس ولايسمح لأي طالبة بالخروج قبل الثانية عشرة . قسم الدراسات الاسلامية وتحته جماعه المصلى يسيطرون سيطرة شبه تامة على الأنشطة اللامنهجية .

كما تمت مراجعة مقررات كثيرة بتوجيهات فوقية خاصة في قسمي علم الاجتماع واللغة الانجليزية .

حتى قسم اللغة العربية لم يسلم من تحريضنا الذي طال الموضوعات المتعلقة بالرواية والشعر الحديث .

لم تعد جامعة عليشة كما كانت ، لقد تغيرت نهائيا وكأن الطوفان عبر من فوق عتبتها . لذلك كنت أشعر في داخلي براحة تغمرني وكنت مهيأة تماما للجهاد في مكان آخر .. في مستشفى الملك خالد الجامعي ..

هناك ، في المستشفى ، سأعرف للمرة الأولى بأن قدرة أو سلطة عبدالمجيد ومن هم فوقه مقيدة بطبيعة المؤسسة وليست مطلقة كما تصورتها وأنا في جامعة عليشة. ففي الجامعة تعودت بأن تحرك الشيخ يكون سريعا وفاعلا بمجرد أن أرفع له بالمخالفة الشرعية ، إذ ماهي إلا أيام لاتتجاوز في الغالب الأسبوع الواحد حتى تتهلل أساريرنا فرحا .

أما هنا في هذا المستشفى الجامعي فالأيام والأسابيع تمر ولايتغير شيء من الحال الذي شكوته له أو أخبرته عنه وكأن يديه مغلولة . فإذا راجعته أو سألته أكتفى بالتحسب كما تفعل أي عجوز قعيدة :

حسبي الله ونعم الوكيل .

بينما لم أسمع بهذا التحسب طوال إشتغالي في عليشة حين كانت صورة عبدالمجيد صورة سوبر شيخ بيده الطويلة ونفوذه الأسطوري .

لقد اتضحت لي الصورة ، إن بعض المؤسسات بطبيعتها أو بطبيعة القائمين عليها تكون الحلقة الأضعف بقبولها للابتزاز الصحوي ، ولاشك أن تعليم البنات بقطاعيه العام والجامعي كان صيدا سهلا لم يكلفهم أي عناء بعكس الحال الذي كان عليه المستشفى الجامعي وأظنه ينسحب على باقي المستشفيات الأخرى . شرح لي الشيخ أوضاعا عدة مخالفة في المستشفى كالاختلاط في المكاتب وبرامج تدريب طلبة الطب والعلاقات بين العاملين .. الخ ،

ثم وجهني حين أذهب صباح الغد في أول أيام دوامي أن أقابل حسب تعبيره:أختنا الدكتورة غنوة في قسم النساء والولادة .

لاحظت أول مالاحظت طرافة أسمها، فسألت بعفوية : سعودية؟

رد بالايجاب، ولكنني فيما بعد سأعلم بان هذه العين الساهرة للهيئة في المستشفى قدمت من سوريا قبل 3 سنوات فقط، لكن الرضا تحرك في كل اتجاه وعلى كل صعيد حتى نالت الجنسية . المضحك بأن والدتي التي تزوجت سعوديا وأنجبت منه وعاشت على هذه الأرض نحو 35 عاما لازالت مصرية .

دخلت المستشفى من بوابة الطوارئ، ثم تهت قليلا وأنا أبحث عن القسم. أنتظرت الدكتورة غنوة حتى أتت إلى مكتبها ، فإذا أنا أمام امراة تتشح بالسواد من رأسها إلى قدميها ، وبالكاد تتضح رموش عينيها. أكبرتها في نفسي حين سمعت بانها تحتفظ بهذه الهيئة حتى في غرفة التوليد ،

قلت في نفسي : لهذه الوجوه المباركة خلقت الجنسية السعودية .. !!

أستقبلتني الدكتورة ببرود الشوام المعروف ، وحين جلست ساءني أن طلبت مني أن أقوم وأغلق الباب ، لكنني فعلت بصمت . حين عدت للجلوس ثانية ، قالت :

هالمشفى الله وكيلك، فيه شغلات تنحكى وشغلات ماتنحكى ..!!

إذا فقد كان في جعبة هذه الغنوة الشامية الكثير من الملاحظات عن المستشفى التي بعضها (ينحكى) وبعضها الأخر لشناعته وهوله (لاينحكى) .

وقد صدقت مقالتها بعد أيام قلائل من إنتظامي في العمل . فمكاتب الأطباء والطبيبات والأخصائيين والأخصائيات تتجاور بدون فواصل أو عوازل . وأطباء الامتياز في شرخ الشباب يجولون في كل الأقسام والعنابر .. والملتقيات وورش العمل التي يرعاها المستشفى بشكل دوري لتطوير كوادره مختلطة بشكل يزلزل عرش الرحمن .

والأدهى من كل ذلك مطعم المستشفى الذي يحمل لافتة عليها : "يمنع دخول غير العاملين" والتي كان وضعها ضروريا حتى لايشهد عليهم أحد من خارجهم. فالضحكات والهمس والمزاح والغزل الخفي ديدن رواده من الاطباء وزميلاتهم ، بينما يأكلون من بوفيه واحد ويجلسون على طاولات مشتركة.لقد تأكدت بنفسي أن الصورة الحقيقية لهذا المستشفى الجامعي أكثر قتامة من الصورة الذهنية التي أعطاني إياها الشيخ عبدالمجيد. مرت أسابيع من إشتغالي بالمستشفى بدون أن تستدعيني الدكتورة غنوة حتى ظننت بأنها نسيتني بين الملفات التي أقضي معها جل ساعات دوامي . كما كان اتصال عبد المجيد بي في هذه الفترة متقطعا وقليلا بسبب انشغاله كما عرفت في تنظيم دورات علمية وتأهليلية لأعضاء الهيئة.لقد بدأت أشعر بالسأم والضجر ، وخشيت بأنهم يريدون تقليص دوري أو مهامي بسبب تقصير مني أو ماشابه ، لذلك لا أستطيع أن أصف فرحي ذلك الصباح حين تلقيت إتصالا من الدكتورة غنوة تطلب مني موافاتها في مكتبها .

واضح أن شخصية غنوة عملية ، فقد دخلت في موضوعها مباشرة بدون تمهيد ولا حتى قليل :

فيه دكتور في القسم أسمه خالد " بدنا نجرجرو" ..

زلزلني غرابة التعبير . لماذا تريد جرجرته .. ؟

أو كيف ستجرجره .. ؟ حتى الأن لم تعطني تفاصيل . ظننت للوهلة الأولى أن تخصصه في النساء والتوليد وهو رجل كاف لجرجرته . لكنني سرعان ما سأعرف بأن المسألة الدينية بتحزباتها وتياراتها المتعارضة أكثر تعقيدا مما كنت أعرف ، فالهيئة الخارجية لهذا الدكتور لاتختلف عن هيئة عبدالمجيد ..

هو ملتحي ويرتدي الثياب القصيرة تحت البالطو الأبيض . هو بأكثر التعبيرات إختصارا ..

مطوع .. الرجل ليس فاسدا ولا علمانيا ولاسكيرا .. فلم تريد جرجرته .. ؟!

عرفت من عبارتها بأن "الشغل" هنا مختلف في نوعه أو طبيعته عن "الشغل" في جامعة عليشة. أنقبضت نفسي وخشيت من التعامل مجددا مع جنس الرجال . أكملت حديثها بعد ثوان معدودة وهي تقلد اللهجة السعودية بشكل ممجوج ، وغير مبالية بكوم الأسئلة التي من الضروري أنها ارتسمت على وجهي:

المطلوب يا رمانة يمسكوه وهو متلبس بخلوة غير شرعية ..!

وحينما لاحظت غنوة إضطرابي وحيرتي ، تفضلت بعبارة واحدة وهي تطوي أوراقا بين يديها وتنهض واقفة إشارة على انتهاء اللقاء :

الدكتور خالد بيتصدق على الفقرا والأرامل ، أدخلي له من هالباب .. !

بدأت أفهم القصة وأرتبها في ذهني على هذا النحو .. الدكتور تدينه "ضال"، الدكتورة ومن معها يريدون جرجرته لتدينه الضال ، أنا من سأجرجره ، وعلي التقرب منه من خلال طلب زكاة أو صدقة .

عانيت صراعا لأيام وكان السؤال مسيطرا على ذهني ..

هل نحن نرضي الله إن لطخنا سمعة مسلم غافل .. ؟!

هل يجوز أن أكذب على الرجل وأتبلى عليه في قضية تمس الشرف والأمانة .

عبدالمجيد كان أشد ذكاء وصبرا من غنوة التي ألقت تعاليمها وغطست . عرف ترددي وصراعي ، ووجد أن لا مناص من الحديث معي حول هذا الصراع حتى ينقشع :

يا أخت غنوة هذا الجامي لايغرك بلحيته عساها حطب (ن) لجهنم .. لقد آذى بتقاريره كثير (ن) من أخوتنا فتسبب في نقل وفصل العديدين سواء في المستشفى أو في كلية الطب .

بدأت أستوعب أكثر طبيعة الحرب الحزبية وقذارتها.لكنني لم اعرف في اية لحظة من تعاوني مع الهيئة "التراتبية" التي يعملون من خلالها، أو شكل ارتباطهم بباقي المؤسسة الدينية. فأنا مرتبطة بعبدالمجيد لكن هو مرتبط بأخرين أعلى منه ، بعضهم من داخل أو من خارج الهيئة .

الدكتورة غنوة على صلة بعبدالمجيد لكن مرجعها كان شخصا آخر لا أعرف على وجه التحديد موقعه .. !! هل كان من الهيئة أو من خارجها . ماكان يظهر إعتباطيا أو أرتجاليا من عملنا كان في الواقع منظما ومخططا ، كما لو أننا خلية سرية صغيرة .

عرفت بحدسي دائما أننا جماعة ذراعها طويلة تعمل لخدمة "أهداف أيديولوجية عليا"، لكنني أبدا لم أعرف موقع هذه الجماعة الدقيق من المؤسسة الدينية ككل .

لاشك أن سلطة عبدالمجيد التي ظهرت لي أحيانا خارقة كان يستمدها في أول المطاف أو في آخره من قوة المؤسسة وهيمنتها ، لكن ليس بمقدروي أن أحدد طبيعة أو مدى العلاقة بيننا كجماعة وبينهم كمؤسسة ففي النهاية كان وجودنا تكتنفه ضبابية لا استطيع التعبير عنها. كنا غير مرئيين مع كل مانمارسه من أنشطة مرئية .

قلت لعبدالمجيد متسائلة كما لو أن كلماته القليلة قد بشرتني أو ذكرتني بصواب عملنا الذي لاياتيه الباطل :

طيب الدكتورة تقولي هو يتصدق وأدخلي عليه من هالباب، وشلون لحالي .. ؟ مافيه أحد يساعدني .. ؟
قهقه عبدالمجيد وقال مستنكرا :

إيه هاذي الدكتورة غنوة . ثم تابع جادا :أنا معك خطوة بخطوة.

أشاع رده الطمأنينة في قلبي ، وبعد يومين أتصل بي وأعطاني تفصيلات العمل الذي لولا أنني كنت واقفة عليه لما صدقته أبدا ، لما أكتنفه من تخطيط لايقوى عليه سوى إبليس وأعوانه .

أتصل شخص مجهول بالدكتور وشكى له أوضاعه المادية المتردية ، فهو يسكن مع والده المشلول في بيت شعبي متهدم بمنفوحة ، والبيت يفتقد للأساسيات وأولها الكهرباء المقطوعة من شهر لعدم السداد .
كانت تتجمع لدى الدكتور زكاوات بعض الأغنياء الذين يسلمونها له شخصيا حتى يتولى توزيعها بمعرفته وتورعا منه أو رغبة في التأكد من أحقية مستلميها للزكاة ، كان يقوم بنفسه بزيارة الشخص المعني في بيته للوقوف المباشر على أحواله .

يأتي الدكتور بعد صلاة المغرب من أحد الأيام إلى البيت الشعبي بمنفوحة ، ويطرق بابه . يفتح الشخص المفترض بأنه صاحب البيت فيرحب بزائره ويدخله ثم يستأذن لدقيقة لإعطاء والده الدواء . يغادر سريعا صاحب البيت المفترض إلى الخارج. وبعد خمس دقائق تكبس الهيئة على البيت حيث يكون الدكتور جالسا في الغرفة الصغيرة ، وفي زاوية البيت، أقف أنا رمانة فارس بثوب خفيف .. !

هل أكون صادقة لو قلت بأنني نمت تلك الليلة في منزلي قريرة العين .. ؟

أبدا .. أنصرفت إلى منزلي بعد ذلك الموقف التعس وكأن شيئا لم يكن ، وذهبوا بالدكتور المسكين حيث لاأعلم ولا أريد أن أعلم .

وحين آويت إلى فراشي لم يكن هناك فضاء على وجه الأرض قادر على أن يتسع لروحي المغتربة ولضميري المتعب . قد تكون حادثة الطبيب تلك هي بداية الشرخ الذي حدث ثم أخذ يتسع ويتعمق حتى صار فيما بعد مثل الهوة التي تفصل بيني وبين كل أفكار وأعمال ومخططات الشيخ عبدالمجيد ..

إنني لم أتسبب في إيذاء جنس مخلوق حين كنت أعيش حياة منفلتة متحررة فكيف لي أن أفعل بوحشية بعد أن اهتديت وعرفت الله .. ؟

هذا هو السؤال الكبير الذي لم أجد له جوابا رغم كل الفذلكات والشروحات والتبريرات التي كنت أسمعها.لكن عبدالمجيد تعود حين يلاحظ مني بوادر شك أو تردد أو ضعف ، تعود أن يحتويني بعبقريته الشيطانية التي تتوسل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والكلام في المجتمع والفضيلة وصالح الناس ، فما ألبث أن أعود إلى كنفه وأنا أقرب إلى الطمانينة.وكنت في تلك الأيام فخورة في سري بما كنت أظنه أهمية حصلت عليها ، وماذاك إلا لأنني كنت أرى مايبديه معي الشيخ من صبر وسعة صدر وتلطف ومديح ، إلى درجة أنه قد\ يرآني متبرمة متأففة من بعض الطلبات فيلاطفني بحنكة ودهاء ، فأسعد بما ألقاه منه غاية السعادة خاصة وأنا أعرف حجم من يقدمن له العون والمعلومة أحتسابا من طالبات علم ومعلمات وسيدات مجتمع فاضلات فربما لم يوليهن مايخصني به من تكريم. لكنني اليوم أضحك من سذاجتي ، فالشيخ وجد في تواضع تعليمي وبساطة تجربتي وثقافتي ، وتواضع الخلفية الاجتماعية التي أتيت منها بل تهميشها ، وجد في كل ذلك ميزات لم يجدها في غيري بحيث تحولت بين يديه إلى آداة شريرة طيعة يلعب بها كيف يشاء، وتحقق له في الغالب الأعم ما أراد وأكثر مما أراد .

عاد الدكتور خالد إلى المستشفى بعد ثمانية أشهر لكنه عاد كسيرا ذليلا، فماذا بعد الحبس والجلد .. ؟

ماذا بعد أن لطخنا سمعته إلى الأبد، وحولناه إلى مضغة في الأفواه. رأيته ذات صباح بهيئته المميزة: البالطو الأبيض فوق الثوب الأبيض القصير يمارس جولته الصباحية في قسم التنويم، فتمنيت لو أنشقت الأرض وبلعتني في تلك الساعة، أو لو أن أمي ما أتت بي إلى الدنيا. لقد أشفقت عليه جدا ، ورثيت لحاله ، مازال بعد مافعلناه به يملك أن يطبب الناس ، لكن من يدري أي حرقة ظلم يشعر بها .

مر مافعلناه به كشريط سريع في رأسي ، وكأنني أسمع صوت طرقاته على باب بيت منفوحه ثم سلامه الجهوري ، ثم صوته المرتجف الذي ردد عبارة واحدة برتم واحد: ياأخوان تراكم غلطانين .. !

لم يطل مقام الدكتور في المستشفى بعد عودته ، فسرعان ماأنتقل للعمل والعيش في الجنوب ، ربما رغبة منه في مداوة جرحه بعيدا عن الأعين . وحسنا فعل فقد خفف ذلك من تأنيب ضميري وحول الرجل وقصته إلى ذكرى في قلبي مثل عشرات الذكريات المدفونة .

على أنني حتى هذه الساعة لا أعرف على وجه التحديد لم فعلنا بالدكتور خالد مافعلناه. أعرف شيئا واحدا: لقد ألصقنا به ظلما أكثر التهم انحطاطا .

ذات يوم نادتني الدكتورة غنوة وسلمتني مظروفا وقالت إنها لاتثق بالمراسل الموجود في القسم، وتخشى تسرب محتواه . وطلبت مني أن أمر على مجموعة عاملين وعاملات بالمستشفى في حدود الثلاثين حددتهم بالأسماء ، وأن أناولهم المظروف يدا بيد للتوقيع على الورقة بداخله .

ولم تنس أن تذكرني بأنني يجب ألا أتقاعس أو أتكاسل بسبب حاجتي للتردد أكثر من مرة لظروف إنشغال هؤلاء أو مناوباتهم أو تواجدهم خارج المستشفى . وعادت وأنا خارجة من مكتبها تؤكد على الحرص والحذر .

توجهت مباشرة إلى مكتبي وفي يدي ورقة بخط يدها تحوي الأسماء المطلوب المرور عليها، وأمام كل منها أسم القسم الذي يعمل أو تعمل فيه .. من العلاج الطبيعي والصيدلية والأطفال والجلدية والطب النفسي وعلاقات المرضى .. الخ .

بعضها أسماء سعودية وبعضها أسماء مصرية وسودانية وباكستانية. فتحت المظروف وقرأت الرسالة الموجهة إلى المفتي والمكونة من صفحتين بتمهل . كانت مقسمة إلى عناوين فرعية ، تحت كل عنوان مجموعة نقاط تمثل مايراه الموقعون مخالفات شرعية تحدث جهارا نهارا في المستشفى .

الموقعون حتى الآن ثمانية فقط بينهم غنوة. لسبب لا أدريه قمت من مكاني إلى آلة التصوير ونسخت الخطاب وأحتفظت بالنسخة الموقعة في أواخر 1994 م لنفسي .

ومن صباح الغد بدأت بالمرور على الأقسام. بعض المطلوبين كنت أجدهم من المرة الأولى لكن في الغالب كنت أحتاج إلى التردد أكثر من مرة . إحداهن وكانت اخصائية علاج طبيعي أسمها منيرة لم أفلح أبدا في إصطيادها. قالت لي إحدى الفلبينيات إن كنت تريدينها لضرورة أنصحك أن تتواجدي هنا السابعة صباحا (الدوام يبدأ الثامنة) لأنها تأتي مبكرة لظروف عائدة إلى المواصلات .

لم يكن قد تبقى لدي سوى هذه الاخصائية فقط وأسمين أو ثلاثة ، وكنت قد بدأت أتعب وأمل فلي عشرة أيام أدور بين الأقسام .

في الصباح التالي كنت أدخل قسم العلاج الطبيعي قبل بداية الدوام الرسمي بساعة .

كانت الممرات هادئة تماما والقسم خال إلا مني أو هكذا بدا لي. جلست على كراسي الانتظار لست بعيدة عن مكتب منيرة وعيني اللتان تطلان من خلف النقاب الضيق يراوحان بين الأرض أو ساعتي اليدوية وباب الكوردور الذي أنتظر دخول أحد ما منه .

في أجواء الهدوء والصمت بدأت تتناهى إلى سمعي أصوات خافتة جدا ومكتومة وتأتي من مكان ما .
قمت من الكرسي ومشيت باتجاه الهمهمة وأنا أرفع جزمتي برفق حتى لاتحدث إزعاجا .

كان يدفعني الحدس بأن هناك شيئا ما كبيرا يحدث . أقتربت من مكتب منيرة وألصقت أذني بالباب.
بدأت الهمهمة تتضح . أمضيت نحو خمس دقائق لا أصدق . وحين سمعتها تقول:

خلني أول أطلع لـ السيب أشوف ..

أسرعت واختبأت خلف ستاند كبير بحيث لا ترآني . فتحت الباب وأستطلعت يمينا ويسارا وهي واقفة بمكانها ، ثم بلحظة خاطفة خرج أحدهم من مكتبها يهرول بخفة مجتازا باب الكوردور إلى خارج القسم.
شعرت بأنني أعيش في أحداث فيلم أو قصة ، ولكنني قررت وأنا لا أزال خلف الستاند أن أتمالك أعصابي .
حين توقعت بأنها قد رتبت نفسها ، تقدمت وطرقت بابها طرقتين خفيفتين. عندما سمحت لي بالدخول وجدت نفسي أمام فتاة تتغطى غطاء واسعا ثقيلا على هيئة الشادور وترتدي القفازات. كان صوت المقرئ ينبعث عذبا رقراقا من مسجل صغير فوق مكتبها .. !

بمجرد أن وقعت هذه الاخصائية البيان وأعادته إلى المظروف. تناولته منها مسرعة وأتجهت ناحية الباب بلا كلمة واحدة .

بالكاد حملتني رجلي المرتعشتين إلى مكتب الدكتوره غنوة بقسم النساء والولادة.كان رأسي يمور بالأفكار المشوشة ، والضيق يكاد يخنق النفس المتحشرج في صدري .

فقد كنت مصدومة مذهولة مما سمعته ورأيته بقسم العلاج الطبيعي. هل أعادتني منيرة بفعلها لرمانة القديمة التي خرجت من جلدها إلى الأبد .. تلك التي لا أريد صلة أو ذكرى تعيدني إليها أو تعيدها إلي ..؟ لكن رمانة القديمة كانت تعيش ذاتها، كانت تجرب الحياة وتشربها حد الثمالة بلا كذب ولا أقنعة .

رمانة كانت هي رمانة. لم تفجر في حياتها السرية ثم تخرج في الصباح مسبحة واعظة منافقة.أنا كنت نفسي . كما أنني الأن نفسي الجديدة . ما أبعد هذه الفتاة أو بنت الأصول المطوعة المنقسمة على ذاتها، عن رمانة السوداء التي بلا أصل ، لكنها رمانة ذات الوجه الواحد التي كنتها ذات يوم.لما بلغت مكتب الدكتورة غنوة كان مقفلا لأنها تقابل مرضاها في العيادة الخارجية .

دسست المظروف المفتوح من تحت بابها. ولم تمر سوى ساعة واحدة فإذا هي واقفة على رأسي . كانت المرة الأولى التي تأتي لي بنفسها ولاتستدعيني بمكالمة صغيرة آمرة.رأيتها تصر أسنانها الصفراء صرا من الحنق وهي تلومني على إهمالي الذي ساقني لتعريض أمر على قدر من السرية إلى خطر الافتضاح ، وإلا كيف جرأت على وضع المظروف هكذا من تحت الباب .. ؟!

حين إنتهت من حديثها وهمت بالخروج إذ لم يكن لردي أهمية عندها حتى تنتظره ، ناديتها بأسمها مجردا بجرأة أنا أول من أستغربها . التفتت علي والدهشة تعقد لسانها، فلم يسبق وسمعتني إلا مهمهمة بعبارات الخضوع والتسليم.قذفت في وجهها كلماتي وكأنني أخشى أن تهرب مني الشجاعة المفاجئة فلا أجدها ثانية : أسمعي يا بنت الناس لا عد تطلبين مني شي ، ولا ترفعين علي سماعة ، تراكم حومتوا كبدي .. !!

التفتت علي غنوة ووجهها محتقن وأنطلقت تشتمني بلسان شامي مبين وكأن الغيظ أنساها أن تتكلف اللهجة السعودية كعادتها . لكن ماعادت معايرتي بسوادي تجرحني ، لقد داس الناس علي بأحذيتهم ، ومرغتني الحياة في وحولها حتى أخشوشن جلدي . كادت تفقد عقلها وهي ترآني مسترخية خلف مكتبي الصغير أبتسم ببلادة وكأنني لا أسمع شتائمها .

لم أكن أفتعل البرود لكنني حقيقة لم أكن مبالية بها وهذا على غير عادتي ، فلطالما عاملتها بتبجيل وكأنها ظل عبدالمجيد وظليله في المستشفى . توعدتني وهي تصفق بالباب خلفها .

بعد المغرب مباشرة من ذلك اليوم كان الشيخ يهاتفني. يااااه ما أسرع ماوصلته الأخبار.بدأ كعادته يسأل عني وعن والدتي. داهية يعرف كيف يستولي على النفس بدماثته وتواضعه ، وليس مثل تلك المنفوخة غرورا وعنجهية .

كنت أعرف بأنه سيصل لمراده من المهاتفة وهو السؤال عما حدث بيني وبين غنوة ، فأردت اختصار الطريق عليه وأخبرته بالقصة بدون أن أذكر له شيئا من أمر الاخصائية مع ذاك الرجل. لكنني تابعت قائلة بأن أجواء المستشفى ونظام الدوام فيه لم يعد يناسبني خاصة والمرض قد زاد على والدتي وأنني أتمنى منه أن يدبر لي مكانا آخر .

لم يناقشني عبدالمجيد في كلامي بل أكتفى بأن وعدني خيرا وأغلق الخط. أظنني في ذلك الوقت قد بدأت أفهم شيئا من الواقع الذي جروني إليه ، لكنه نوع من الفهم البسيط والسطحي. فقد بدأت أعرف يقينا بما نملك أو يملكون من سطوة .. من قدرة على الإيذاء .. من إنشغال مبالغ فيه بأمور الآخرين .

أما الأفكار المتشددة فلم تكن حكرا علينا ، لقد غزت كل المجتمع منذ وقت مبكر وكادت تحيله إلى طيف واحد . لكن مايجعلني لا أرفض ولا أبعد هو وهمي بأن ارتباطي بهم هو طريقي للاغتسال من ذنوبي وللتكفير عن خطايي المتراكبة كالجبال. أيضا هل أكذب .. ؟

لا لن أكذب .. إرتباطي بعبدالمجيد منحني آمانا ماعرفته طوال حياتي . آمان القوة الوهمية .. وآمان المال. فقد كانوا يدفعون لي شهريا مبلغا ماليا لابأس به بخلاف ما كنت أتقضاه من جهة عملي. لذلك بقيت أنتظر اتصال عبدالمجيد على أحر من الجمر . فبقدر ماكرهت العمل في المستشفى بقدر ماكنت متطلعة للمكان الآخر .

بعد نحو 5 أسابيع كان صوت الشيخ عبدالمجيد يصب في أذني الخبر في ثوب سؤال:

وش رايك في الجمعية .. ؟

هي جمعية الوفاء الخيرية مما يعني بأني صرت أشبه بنحلة نشطة على يد شيخي ، فمن جامعة الملك سعود إلى المستشفى الجامعي ثم إلى جمعية الوفاء المنضوية تحت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية .

كنت أفضل العمل في جو نسائي كامل ولا زالت تجربتي في مركز الدراسات الجامعية بعليشة أحب إلي بكثير من عملي في المستشفى، مع ذلك فقد رددت على سؤاله بسؤال:طيب هذي جمعية خيرية .. ؟ماعنيته في سؤالي المروارب فهمه الشيخ في ذات اللحظة فأجاب :

يا أخت رمانة وأنتي مصدقة إن شغل هذولا توزيع صدقات وماصدقات .. ؟

أستغربت من سؤاله ولم أعرف بما أجيبه .. حقيقة لم تكن لي أدنى معرفة بطبيعة وعمل الجمعيات النسائية الخيرية ، ولم أكن أسمع بها سوى لماما ، مع أن جمعية الوفاء قد تاسست في سنة 1395 هـ .

لم أكن أعرف سوى أن هذه الجمعيات ترعى الفقراء والمطلقات والأرامل. لكن هاهو الشيخ يشكك فيما أعرفه، ويبدو بأنه على اطلاع واسع بتجاوزات أو مخططات تجري هناك.كنت في نفسي على وشك أن أسخر من معرفته المزعومة، من التجاوزات أو المخططات المزعومة، لكن لو كان الأمر صدقات وحسب فلم يريدني أن أكون عينه هناك .. ؟؟

تابع الشيخ كلامه :

لهم رئيسة بس البلاء مهوب منها، البلاء من مجلس الإدارة.عرفت مما يعرفه عن الجمعية من معلومات دقيقة بأن له عينه التي تركت العمل، وأنني البديل الجاهز .

عرفت بأن الرئيسة (اللي البلا مهوب منها) تنتمي إلى أحد فروع الأسرة.كانت امرأة قد أنتصف بها العمر ، وهذا هو حال جميع أعضاء مجلس الادارة اللواتي يتحدرن من أصول أرستقراطية أوتكنوقراطية . أجتزت مقابلة شخصية أحسبها صورية تماما، ولقد كان الأمر في غاية الغرابة وحتى الأن لا أجد له تفسيرا مناسبا.فقد أخبرني عبدالمجيد بأن أعلانا سينزل في صحيفة (الجزيرة) باسم جمعية الوفاء التي تطلب سكرتيرة، وأن علي أن أتصل بالرقم الظاهر وأستفسر عن الوظيفة بطريقة عادية. فعلت ماطلبه مني وقد فوجئت بالمؤهلات المطلوبة التي لا أتوافر عليها .

عاودت الاتصال بالشيخ فضحك قائلا:

ماعليكي .. الوظيفة أصلا محجوزة باسمك .. !

تم تحديد يوم للمقابلة الشخصية وحين توجهت إلى هناك وجدت سبع أو ثمان فتيات ينتظرن دورهن . زاد عجبي، كيف يقول عبدالمجيد بأن الوظيفة باسمي.. ؟

وإن كانت باسمي فلم هذه اللفة الطويلة المتعرجة .. ؟ لم لا أعين هكذا كما حدث في المرات السابقة .. ؟

بم تفرق جمعية الوفاء عن الجامعة أو المستشفى الجامعي .. ؟ حقا لا أعرف جوابا لأي من هذه الأسئلة .

لكن من الواضح بأن الموضوع كان صوريا أو شكليا مدبرا بعناية من لحظة الإعلان بالجريدة حتى لحظة فرز الطلبات وإجراء المقابلات الشخصية ومن ثم قبولي وصرف الباقيات إلى بيوتهن مع أنني أبدا لم أكن الأفضل .. !

عهدوا لي في الأيام الأولى بتحديث المعلومات الواردة في أكثر من 200 ملف من ملفات الأسر التي تكفلها الجمعية . فكان علي أن أراجع أرقام الهواتف والخرائط (الكروكيات) وعدد أفراد الأسرة المشمولين بالاعانة ونحو ذلك . ومع أن العمل كان روتينيا إلا أنه منحني فرصة أن أتعرف ولو هاتفيا على أصوات ومشاعر هؤلاء الناس ، ولولا أن عبدالمجيد كان يهاتفني من وقت لآخر لنسيت تماما صلتي أو وضعي في هذا المكان . كان في كل مرة يسألني عن الأمور لايجد لدي شيئا يشفي غليله، وما ذلك إلا لأنني لم ألحظ أي شيء مما أعتدنا أن نرصده في الجامعة أو المستشفى . وفي ذات صباح باكر كان يهاتفني على المنزل وهو حنق غاضب ، وربما كانت هذه من المرات القليلة جدا التي سمعته فيها يفقد أعصابه أو يغلظ لي القول .

كانت الجمعية قد استأجرت صالة كبيرة وستقيم معرضا تشكيليا لفنانة حجازية على هامش حفل خيري تجمع خلاله التبرعات التي خصصوها إبتداء للأسر التي ترعى أطفالا يعانون من متلازمة داون (المنغولية) .. كانت الجمعية منذ شهر ونصف قد تحولت إلى خلية نحل، وكان الجميع يعمل بهمة عالية ونشاط في سبيل نجاح هذا الحفل الخيري وجمع أكبر قدر ممكن من التبرعات .

لم أنقل لعبدالمجيد هذا الخبر في حينه، فهو حفل خيري قاصر على النساء والأطفال، وهدفه نبيل. بل إنني كنت سعيدة بأن طلبوا مني مع زميلة أخرى بأن نرسم الوجوه التعبيرية الملونة ونقص صور الاطفال ونجهز اللوحات والملصقات ذات الألوان المشرقة ..كأنهم حرثوا عن الطفلة في داخلي فانطلقت أرسم و أقص و أجمع و ألصق .. فماذا يريد عبدالمجيد في هذه الساعة منهم أو مني .. ؟!

قال عبدالمجيد وهو يحاول السيطرة على غضبه :

أنتي وظيفتك تعلمينا بكل اللي يصير عندك .. كلش .. نسيتي .. ؟!

جاوبته: مانسيت شي. بس وش أعلمك .. ؟! حفل خيري وتبرعات ..

قاطعني :

رجعت تقول خيري وماخيري. شوفي حنا اللي نقرر إذا الموضوع داخل في إختصاصنا أو لا .

وحين لم أرد عليه هذه المرة بدا وكأنه قد هدأ قليلا فقال بعبارة ألين :

أبغى يا أخت رمانة على وجه السرعة صورة من برنامج الحفل ونسخة من بطاقة الدعوة وصورة من قائمة المدعوات.لم يكن قد تبقى على الحفل سوى خمسة أيام ، فقلت في نفسي:

سأعطيه مايريد حتى يرضى .. كنت متأكدة بأن كل شيء سيمضي في طريقه وبأن الحفل سيكون رائعا وناجحا. لكنني حين تناولت قائمة المدعوات قمت بنسخها له بحيث أسقطت منها عن قصد بعض أسماء المدعوات مثل زوجة السفير الهندي و د. لين من السفارة الأمريكية والكاتبة بدرية البشر وأستاذة علم الاجتماع د. سلوى الخطيب وأسماء أخرى لا أتذكرها الآن .

أعتمدت على حدسي وتجربتي في تقدير الأسماء التي سيكرهها عبدالمجيد.لقد كانت هذه هي (الخيانة) الأولى مني لشيخي .. !

فأنا مؤمنة بأن مايحدث في هذه اللحظة وفي هذا المكان خير مطلق علي أن أدعمه لا أن أفسده. لكنني في نفس الوقت لست من يقرر وقد ذكرني عبدالمجيد بهذا قبل أيام نفذنا في بهو الجمعية بروفة كاملة لفقرات الحفل ، بالذات فقرات الأناشيد والمقاطع التمثيلية التي يؤديها بعض الأطفال المصابين بالمتلازمة . كان منظرهم مؤثرا يهز المشاعر إلى درجة أن الدموع كانت تتساقط من أعيننا لرؤيتهم. أيضا الأمهات اللواتي حضرن البروفة مع أطفالهن أختنق البكاء في حناجرهن . كما كان هناك أيضا عرضا لأزياء الأطفال، حيث ستقوم 15 طفلة بعرض ثياب منوعة تمثل مناطق المملكة ودول الخليج المختلفة .

كانت الجمعية برئيستها ومنسوباتها يأملن في نجاح الحفل الذي ستشكل التبرعات فيه دفعة قوية لأعمال الجمعية الخيرية. كن يأملن بشيء يوازي المجهود الكبير والوقت الطويل الذي أنفق في الاعداد والتجهيز لهذا الحفل .

ماحدث في تلك الليلة كان فضيحة .. ! لكن الفضيحة لمن .. ؟ للجمعية .. ؟ أم للهيئة .. ؟

أم للجميع .. ؟ وعلى رأسهم من سمح وأعطى وقدم الدعم لهؤلاء الأوغاد .. ؟!

كنا في الصالة منذ الثالثة ظهرا، ومعنا رئيسة الجمعية التي آلت على نفسها أن تتابع التجهيزات الدقيقة الأخيرة بنفسها ، بينما نائبتها تراجع الكلمة التي ستلقيها. كانت معنا مهندسة صوت ومدربة مسرحية ، والأطفال كأنهم الفراشات حولنا يتدربون مرة تلو المرة على النشيد والتمثيل.وهناك كانت الفنانة التشكيلية مع عاملين من الجنسية الفلبينية ترفع لوحة من لوحاتها وتنزل آخرى ، تنظر من بعيد ثم تقترب وتغير رأيها. كنا ننظر إلى حرصها الزائد ونبتسم ساخرين، وسمعت إحدى المستخدمات تنعتها بالخبيرة. مؤكد أنها حريصة على ظهور معرضها بمظهر مشرف لها وللجمعية.كنت أتحرك بخفة وألبي أي طلب أسمعه، فبداخلي سعادة قلما شعرت بها، خاصة وأنا أرى حولي هؤلاء الأطفال الأبرياء بملامح وجوههم التي ميزها المرض ، بعضهم في لباس أرنب أو ضفدع .. وبعضهم يتدرب أو يلعب .. وبعضهم يغفو على ركبة أمه .. حين أقتربت الساعة من السادسة ، كانت رئيسة الجمعية تقف في أول الرواق للسلام والترحيب بالضيفات اللواتي بدأن بالحضور . ومعها أعضاء مجلس الإدارة وثلاث بنات صغيرات يمثلن مرضى متلازمة داون.لكن حصل مالم يكن بالحسبان .

وظهر عبدالمجيد يسابق الريح إبتدأ الهمس بين الرئيسة وزميلاتها وتسارعت الخطوات هنا وهناك خمس سيارات للهيئة تقف في الشارع ويسد رجالها البوابة ويصرفون بأنفسهم الضيفات اللواتي ينزلن من سياراتهن . أفراد من الشرطة وقفوا جانبا وكأن الخجل يأكل ألسنتهم.كان وضعا مهينا غريبا .. أقرب إلى السريالية . أعترف بأن هذه الحادثة حفرت بعيدا في نفسي ، أبعد بكثير حتى مما حفرته الواقعة التي لطخنا فيها سمعة الدكتور خالد الغامدي . في تلك الليلة التي أفسدوا فيها حفلنا، ورأيت خيوط الدموع في أعين الأطفال المحبطين بعد أسابيع من التدريب والعناء.. في تلك الليلة التي انصرفنا فيها إلى بيوتنا مكسورين متألمين ..في تلك الليلة التي عوملنا جميعا فيها كما لو كنا في حفل عاهرات .. في تلك الليلة كرهت عبدالمجيد .. كرهته وكأن النور أشرق في دماغي ليشكل بدايات طريقي الآخر .